

كناسة اللّكّان

إعداد وسراجعة
فستّاد د وارة



اهداءات ٢٠٠٣
أسرة أ.د/رمزي طحي
القاهرة

کناستالرطان

الاخراج الفنى : سهير معطى

مؤلفات يحيى حقي

٢٨

كناخة الديكان

المقالات الأدبية - ٩

إعداد ومراجعة
فؤاد دودة



الموسسة الوطنية للمكتبات والارشيف

١٩٩١

(١)

من عالم الطفولة

شقيقة الفجر

من فضائل رمضان أنه يتيح لعدد كبير من الصائمين أن يتذوقوا بعد السحور متعة فترة تفوتهم هم وأغلب الناس بقية العام لأنهم من حزب نوم الضحى ، فيهم من يسهر اضطراراً لأنه من الكادحين ، وفيهم من يسهر دليلاً لأنه من عشاق الليل أعداء الشمس . انها شقيقة الفجر ، يا له من جمال ، أعجب كيف يغفل كثير من الناس عنها ، ليس الا عندما يمتلئ القلب ، بأقصى ما يقدر عليه من الاحساس بعظمة الخالق ، بروعة الكون ، بالتشوف للطهر ، بالانبهار بالجمال .

ومن العجيب أن « القرآن الكريم » متببه لشقيقة الفجر ، متيم بجمالها ، انه أقسم بالفجر « والفجر . وليال عشر » ، ربط بينه وبين صدق النية وصفاء الروح : « ان قرآن الفجر كان مشهودا » رسمه على لوحة مبهجة الألوان بخيط أبيض وخيط أسود ، ما أعجب زعشة هذه اللحظة من الزمان .

الآن لا أشهد شقشقة الفجر مرة الا ردتني بقوة الى
ذكريات طفواتي ، دنياى حينئذ هي دنيا المسموعات لا المرئيات،
بالليل أسمع دقة نبوت الخفير على الأرض فلا ينفع الأمن المراد
لها أن توحى به الا في اثاره مخاوفي من القوى الشريرة المبهمة
التي تتربص بنا في الظلام ، الجن والعفاريت والست المزيرة،
والبعلة التي تصطنع الوداعة ولود وتستدرجك لتركبها فاذا
تحامقت ونسيت المواعظ علت بك درجة حتى تبلغ عنان
السماء ، فأت في خطر أن تدوخ قتهوى الى الأرض ويندق
عنقك ، ثم يشق الصمت صوت مرعب يخفق له قلبي خفوقا
مؤلما ، صوت البومة ، أم قويق ، ربيت على أنها نذير خراب
وقرب هبوط ملاك الموت على الأرض ، لا يعود للسماء الا وفي
جمبته روح انسان . أدعو الله في سرى ألا يكون المخطوفة
روحه واحدا من أهلى ، وكأني وثقت باستجابة دعائي ، فأسال :
تري أى الجيران سيقع عليه الدور ؟ انى أرثى له ولأهله حتى
ولو كان بعد سبع جار .

وصوت البومة من طبقتين مختلفتين بينهما فاصل ،
أولا خافت يشبه الأنين يبعث في قلبي الحزن مع الخوف ، هذا
والله هو البكاء بعينه ، ثم فجأة صرخة قصيرة حادة قاسية
متوحشة ، لونها في أذني لون الدم ، وكنت لا أعرف حينئذ أنها
هي صرخة الانتصار حين تنقض على قنيصتها ، ولكنها كانت
تجعلني أحس احساسا عميقا مبهما بأن العالم الذى أعيش فيه

يسوده قانون صارم لا يرحم : قانون الافتراس ، صراع بين
القوى والضعيف ، اما آكل واما مأكول ، كنت أرتعب من أن
أكون من المأكولين ، وان بقيت غير واثق كل الثقة أنني
سأكون من الآكلين ، كنت على غير علم منى أمتحن قدرتى ، بين
الوثوق والشك . لعل هذه اللحظة من التردد صحبتهى فيما بعد
طول عمري .

و حين كبرت وقرأت الشعر الانجليزى هالنى - نعم ،
أقول هالنى فهذا أصدق وصف لحالى - أنى وجدت صوت
البومة عنده غير كريبه ، لا يندر بخراب أو موت ، يسلكه بين
بقية أصوات الطير الأنيسة ، ويرى فيها احدى صلات الانسان
بأسرار الكون وجماله ، فهتاف المخلوق للخالق ، دعاء
وتسبيح ، كيف يمكن اذن أن يقوم تفاهم بيننا وبين الانجليز ؟

ولكن مهلا مهلا ، كل هذه المخاوف ستزول ، سيكون لها
عوض جميل ، سيأتى به الفجر . وستنقضى عنده الغمة ،
سيصل الى سمعى صوت حلو مرتين مرة لأنه بعيد ، ومرة
لأنه يملأ قلبى بالفرح والخشوع معا ، انه صوت المؤذن :
الله أكبر الله أكبر حينئذ أحس بأننى فى حوزة رب قدير ورحيم
معا ، صوت المؤذن هو الذى يبدد عندى الظلام والمخاوف .
وها هو ذا بشير آخر بالصبح ، انه صوت الديك . يؤذن لى
هو أيضا من على سطح قريب ، كأنه يقول : اصح يا ناييم .

صدقنى ، لا أزال أذكر بوضوح صوت هذا الديك
العجوز زميل طفولتى ، صوت أجش كأن صاحبه من مدخنى
الجوزة • وكم كان يطربنى الفرق بينه وبين أول أذان للديوك
الصغيرة حين تبلغ أشدها وينبت طرف عرفها الأحمر ، صوت
رقيق ناعم لطفل يبدأ تعلم الكلام ، ويبلغ سمعى أحيانا صوت
طائر نسميه بالسقاقة ، هو بشير خير ، ينبىء عن قرب حضور
ضيوف أعزاء ، أقارب أو أغراب ، هى طائر ضامر مسحوب
كالسهم ، وربما بلغنى أيضا صوت طائر آخر كنت أراه يجمع
بين الفكاهة والوقار ولكن دون أن أصدق فكاهته أو وقاره ،
وهذه هى مأساته ، انه صوت كأكأة الغراب •

بقى من ذرارى الليل وأصواته شبح أسود ضخم له
صرخة حادة أيضا ، ما مرق مرة أمام النافذة وقد فرد جناحيه
العريضين الا فزعت ، انها الحدأة ، خطافة الكتاكت وبضاعة
بائع جوال يحملها على رأسه وينادى فى الطرقات :
« يا جابر ! » •• انه بائع لحم الرأس ، كل طائرة حديثة هى
من سلاية الحدأة • وكنا نعجب لقول يردد علينا بلهجة التأكيد
المؤيدة بالمشاهدة أن بالاسكندرية طلسمها يحرمها على الحدأة ،
فسمأؤها خلو من هذا الطير الجارح • ولا أعرف الى اليوم
مبلغ الصدق فى هذا القول • واذا لم يصدق فمن أين أتت
هذه الشائعة وما سببها ؟

رويت لك ذكريات طفولتي الملفوفة في قماط من عالم الأصوات ، قصدت بها أيضا أن ابنه الشاب عندنا الى هواية جميلة منتشرة في البلاد المتحضرة ، بل يتعشقها رجال وقورون في أعلى الدرجات من السلم الاجتماعي ، انها تتيح لشبابنا التزود من العلم والالتباه لأسرار الخلق وجماله ، فعند أبناء كل بلد متحضر هواية دراسة طيوره ، مقيمها ومهاجرها ، معرفة طبائعها وعاداتها في الطعام والعشق وتربية الأولاد ، فرز أصواتها وأعشاشها وبيضها ، تباين أحجامها وألوانها ، لو فعلوا لوجدوا في هذه الهواية أكبر النفع واللذة معا ، أم تراهم - كما فعلوا في أشياء أخرى كثيرة - يتركون ذلك للأجانب النازلين بديارنا ؟

(« التعاون » ، العدد ٢٥١ ، ١٠/١٢/١٩٦٧ ، ص ١٠)

• • جانب الرهبة • •

عن طريق الأذن لا العين بدأ في طفولتي احساسى بتلك اللحظة الجميلة الرهبة معا : مولد الفجر وتردد أوائل أنفاسه ، فلا قيام للأسرة كلها من الفراش ، ولا فتح الشيش لأنه جرح للخلوة عندنا وعند الجيران ، ولا خروج الى الطريق الا والشمس قد علت قصبة ونصف على الأقل ، (هذا القياس من قبيل التحسر على أننى كنت لا أسكن الريف) •

هكذا حال أغلب الأسر التي يعملها موظف في ديوان ، أطلقت على مسكنه جدران العاصمة ، وضمان الرزق وانتظامه ، ثرية مستكفية ترعرع فيها ميله الى التكاسل •

وربما أيضا عن طريق الأنف ، فحتى في الشتاء والنوافذ مغلقة بإحكام تحس هي الأخرى بطعم الفجر حين يتسرب اليها رغم السدود هواء كأنما انعدم وزنه ، رق ولطف وترطب ، تطهر وتطيب فيكاد الفم يذوق أيضا حلاوته ، انه نشوة بلا خمر ،

ولكن الاعتماد كله على الأذن ، القابعة داخل أسوار الجدران
المطبقة ، المنتبهة ، المنجولة ، لواقفة على ذنبها - كما تقول
العامة - من فرط اللهفة والتحفز .

وإذ غابت رؤية العين فقد انطلق الخيال واشتط في
شروده ، وتوهم كائنا ما لم يكن ، وكانت له تهاويل تقيم بدل
الحقيقة حقيقة من عندها لا تقل عنها اقناعا وصدقا ، ولأن
الطفولة هي فترة التملص الى الالف والثقة والاطمئنان - ولو
انصياعا أو صلحا - من قبضة الحيرة والشكوك وتتابع امتحان
الأشياء والمعاني والرموز ، من قبضة عالم الأسرار المجهولة ،
لا حديث معه ، أخذا وعطاء الا بلسان الخوف ، فان الخيال
هو الذى تكفل بتضخيم جانب الرهبة بخسا بجانب الجمال في
لحظة مولد الفجر وتردد أول أنفاسه ، فانقلات مكاننا فوق
سطح الكرة الأرضية من بحر الظلمات الى النور يصحبه
احساس الصدور بثقل كتلتها الضخمة التي تجثم عليها ، كأنما
« فوق » أصبحت « تحت » احساس بدورانها حول محورها ،
هذه الرحي أى شئ تطحن غير العظام واللحم منا ، أحتم
ألا تخف عن سمعنا الا اذا كفت هي عن الدوران ؟

احساس - لفترة - بأن المدينة الكبيرة وحش مهول ،
كفانا نومه بالليل شره ، ها هو ذا يهم بالصحيان ، انه ساذج
شرس معا ، ولأنه ساذج فشرسته حمقاء ، وغير مأمونة : وقد

تشور لأوهى الأسباب ، ومرة انها أرض معركة ، قطع الليل فيها القتال ، وها هو ذا يوشك أن يتجدد مع أول شعاع للشمس ، قتال بين آلاف من الجيوش ، وكل جيش قوامه فرد واحد ، مدجج بالسلاح ، يا قاتل يا مقتول ولا ثالث للاحتمالين ، ولو فرضنا المستحيل وساد السلم فانه هدنة بين معركتين •

ليس بالقليل جدا ولا بالكثير جدا عدد الأصوات التى تمشى بين يدى الفجر لتعلن عن مقدمه وترحب به بصوت انسان (المؤذن) ، وصوت حيوان (صياح الديك وزقزقة الطير وتسبيحة الكروان) هى التى تتكفل بزف الجمال فى مولد الفجر الى أذنى ، أما جانب الرهبة فكان يتكفل بها - ولا عجب - صوت للحديد ، صوت احتكاك عجلات بقضيب ، كانت أذنى تبعد بالنهار كثيرا وبالليل قليلا عن مهبط مسجد السلطان حسن ، حين يبلغه الترام القادم من شارع محمد على يستدير الى اليمين بقوة الزاوية القائمة ليعيد من ورائه المسجد الى ميدان القلعة ، فيكون لاحتكاك العجلات بالقضيب عند الاستعادة صوت حاد ، لا أسمعه بالنهار ولكنه يطمئن أذنى مع أول ترام يولد مع الفجر ، فتكاد تجز له أسناني - صرير معدني ، حاد ، فج ، سمج ، بلا حياء ، قاس ، كأنه شحذ سكين للذبح ، هذا ولا ريب أول صليل السيوف وقد بدأت المعركة ، وعجل الترام هو اختصار للرحى التى تطحن منا اللحم والعظم •

حينئذ يتغلب في قلبي صوت على صوت ، الصوت المغلوب
كان يهمس لي : لا تخف ، ان الله رازقك كما يرزق الطير ،
تمضى خماسا وتعود بطانا لأنها مؤمنة متكلة على ربها ، خالقها ،
انه بها رحيم ، والصوت الغالب يفرخ لي : ليس في يدك
ضمان ، فلا اتكال لك اذن الا على نفسك وسعيك ،
والا لسقطت على الأرض وداستك الأقدام ومضغت الأنياب قبل
سيرتك لحماك .

ولكن ما يكاد صوت المؤذن يصل الى سمعي من بعيد
حتى ينعكس الحال فيصبح الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا .

(« التعاون » ، العدد ٢٥٥ ، ١٢/٧/١٩٦٩ ، ص ١٠)

طائر الرهبة ..

عن طريق الأذن لا العين يتولد احساس الطفولة بأن عالم المرئيات ملفوف بعالم آخر خفى ، لا تفض أسرارہ .. مخيف ، مخلوقاته لا تراها رأى العين بل تمثل في تصورنا بالسمع عنها ، الغول • أبو رجل مسلوخة • الست المزيرة • بغلة العشري • الجن • العفاريت • الأخت المقيمة تحت الأرض • كذلك كان لقاؤنا برهبة الموت وامتناع سره عن الفهم • لا تتحرك شعرة في رؤوسنا لرؤية الجنازات أو سرادق المآتم • أو لطم الخدود ، هذا شيء مزعج ولكنه غير مخيف ، لقد تكفل صوت مميز - لا نسمعه الا ليلا - بأن ينقل الينا الاحساس برهبة الموت ولغزه في عنف شديد •

ها أنذا راقد في الفراش في حزن أمة ، أنعم بلذة الشعور بالانتماء ، بالحنان ، بالطمأنينة ، بدوام الدائم ، الدنيا والعمر ، ربما بين اليقظة والنمام • وفجأة ، تتحفز أعصابي وكل قدرتي على الاتباء والانصات • كل ذخيرتي من التوجس •

حين يصل أذنى وسط السكون صوت خافت ، مديد الى قدر ،
متكرر على مهل . . لا أدرى كيف أصفه : أفين قلب مسكين ؟
فحيح حشرة من الزواحف ، زومان متآمر يتلمظ بشهوة
الاتنقام ، تلاوة ورد من متعبد ؟

من أجل هذا كان من المستحيل أن أحكم هل هو حلو
أم بغيض ، ولكن لى به خبرة سابقة ، فلا أعرف صوتا يدانيه
فى القدرة على بث الرهبة والخوف فى قلبى لأنه هو الذى
يؤذن بما سيتبعه من صرخة حادة عنيفة تشق الهواء فتنبىء أن
المخالب قد بثقت أيضا صدر ضحية ، صرخة وحش مفترس
قاس ، أتصوره حينئذ وقد تقلصت شفتاه وكشر عن أسنانه ،
لمعت عيناه ببريق النصر ، بلذة غمد السيف فى قلب العدو ، انه
قتل بانقضاض مفاجيء ، وعلى حين غرة من الضحية ، ولا يفوت
أذنى أن تلتقط من حشايا هذه الصرخة صوت وصوصة خافتة ،
ضئيلة العمر ، كنت أول الأمر لا أتبين سرها ، ثم أدركت
بالتجربة والتكرار انها آخر أنفاس الضحية بين المخالب المخضبة
بالدماء .

تهب أمى فزعة من رقادها . تستعيز بالله . تناشد الشر
أن يبقى « برة » وبعيدا ، وتسال فى توجس شديد : ترى على
من وقعت قرعة الموت التى تنبىء عنها هذه الصرخة ؟ فى
بيتنا ؟ لا . لا . عسى أن يكون على أحد بيوت الجيران ،
لا القريبة ، بل البعيدة .

هذه هي صرخة البومة ، التي كانت أول من حدثني عن الموت ورهبته ولغزه • وحتى لو لم تكن البومة نذير الموت فهي نذير خراب : كان الحي الذي سكنته - وربما البلد كله - مهددا بأعصار كاسح ، سيخلع السقوف ويقوض الجدران ، وتصبح البيوت خاوية على عرشها ، وستجر العاصفة وراءها أكاداسا من الرمال تنحط وتتعالى حتى تبلغ أعلى الشواهد • لا يبقى في اللوحة الا لون واحد هو اللون الأصفر •

لم أرهب عزرائيل رهبتى لصوت البومة ، ورغم دوام المدافعة على طول العمر المديد لم أشف الى اليوم من هذه الرهبة تمام الشفاء • • ولكن صبيرا ، صبيرا • • ان هذه الرهبة لن تلبث حتى يبددها صوت آخر • • صوت جميل هذه المرة •

(« التعاون » ، العدد ٢٥٦ ، ١٤/١٢/١٩٦٩ ، ص ١٠ ، ٩)

رسائل من عالم مجهول ••

أرادوا لى وأنا طفل أن أو من كما آمنوا فأمنت بأن هذا الطائر الذى نسميه بالسقساقه (ولا أعرف حقيقة اسمه الى اليوم) اذا زقزق وهو يرف بجناحين من وراء نافذتنا فمعنى هذا أنه يحمل الينا رسالة تقول ان ضيفا سيقدم الينا على غير انتظار منا ، سيدق الباب فاذا صحنا : « من ؟ » رد علينا انسان لا تتوقعه • ولا تقول رسالة السقساقه هل سنسر لمقدمه أم لا نسر ، هذه مسائل غير داخلة فى اختصاصها • لعل تصرفات البشر تبدو للسقساقه فى غاية من البلاءه أو اللؤم ، فتزدرىها ولا تشغل نفسها بها •

وأن كلاكاة الغراب (الطائر الوحيد الذى يخيل اليك من حركة رقبته اذا صاح أنه يتقيأ) تنبىء بالفراق وتشتت الأسرة ، وأن نعيق البوم بالليل نذير بأن ملك الموت عزرائيل يحوم حول الحى كله ليخطف روحا انتهى أجلها ، كنت أدعو الله من كل قلبى أن يتخطى منزلنا ويمضى حيث شاء ، ثم أشعر بخجل

لأتى بعث جميع الجيران - غدرا - بيع السماح ، مع أن النبى
أوصى على سبع جار ، الى اليوم ينقبض قلبي لنعيق البوم •
ولكنى لما كبرت دهشت أشد الدهشة أن وجدت نعيق البوم
موصوفا في الشعر الأوربى بأنه هتاف رقيق ، حقا ان هؤلاء
الأقوام من جنس غير جنسنا •

آمنت أيضا أن الشبشب اذا انقلب رأسا على كعب فمعنى
هذا أن أحد أفراد الأسرة سيخرج الى سفر ، وأن « البورص »
اذا تسلق أحد جدران المنزل ولبد عليه وأطلق صوتا كأنه حس
المكارى لحماره فلا بد لى أن أصبح في وجهه : « صاحب البيت
اسمه محمد » وقاية لشره ، بشفاعة الرسول ، لأنه اذا مس
الملح وأكلنا من طعام خالطه هذا الملح فلا بد أن تصاب يدنا
بمرض البهاق ، فتغطى جلدها بقعة مشرذمة الحوافى من لون
أبيض كالح ، واللون الأبيض لا يصبح دميما الا بجريرة هذا
المرض وحده ، يهوى أحيانا قبقاب متيم بالقسوة وحب الأذى ،
عاق لأمى وعاص لنصحها بترك هذا الضيف يمضى لحال
سبيله ، فينقطع الذيل ، ويظل هذا الذيل المقطوع يتحرك
ويتلوى أمامى (وبقية الجسد - يا للغرابة - خامد) وأنا
أتأمل الذيل بدهشة لا حد لها ، هذا أول شذوذ يخرق قاعدة
ريت عليها - بأن الحركة هي الفرق بين الموت والحياة ، هل
هذا الذيل حى ؟ هل هو ميت ؟ هذا سؤالى الذى لا يهدينى

أحد الى جوابه ، هل بعض الحيوان يكمن روحه في ذيله ؟ ربما ،
هكذا كنت أقول لأخرج من حيرتى •

وآمنت بالجن ، والعفاريت ، والست المزيرة ، وبغلة
العشري - تقابلت في ليلة مقمرة (هذا هو الشرط) وتفريك
بركوبها فاذا فعلت علت بك حتى تبلغ السماء ثم تلقيك عنها
فتهوى وتلقى مصرعك ، وآمنت كذلك أن لى أختا تسكن
الأرض (كم تمنيت أن أراها رأى العين .. هذه الأخت
العزيزة) وأن بعض الرجال متزوجون من نساء من الجن ،
وبعضهم من حوريات البحر ، الزوجة نصفها الأسفل سمكة
ونصفها الأعلى امرأة ، فلها ثديان كنساء البشر •

وكنت قبل أن أنام أحلم في بعض الليالى - وفي لذة
كبيرة - بأن امرأة من الجن خطفتنى وأنزلتنى قصرا وردى
اللون في كهف سحيق ، قصر مسحور ، ففيه سكيئة متخلفة من
ألف صرخة موعودة ، ونسيم عليل انطلق كالروح الرضية بعد
آخر شهقة من لهاليب من النار كانت تتوالب كأنها فى رقصة
باليه ، زوجتى تنقد عينها كالخمر وهى تقبلنى ، ولكنهما
تشعان باشتياق وحب واعزاز لا تقدر عليها امرأة من البشر ،
وهى شديدة الغيرة على ، تأخذ منى الموائيق ألا أفشى سرها
إذا عدت الى سطح الأرض ، وأن أظل وفيا لها ، فلا أخونها
مع امرأة ولو كانت بين الناس هى ست الحسن والجمال ،

أما عقاب الخيانة فزلزلة في عقلى فألتاث ، فلا أنا عاقل ولا أنا
مجنون ، أو أحلم بأن حورية من البحر قد قادتني الى قصر أزرق
اللون في قاع المحيط ، كأن جدرانه من البللور ، جمد فيه
من البرد كل شعور ، حتى الشعور بالبرد .. زوجتى النارية
تكلمنى ، أما زوجتى المائية فخرساء ، ربما من خجل لأنها
لم تف لى بكل عهد الأتى ، لأن نصفها الأسفل سمكة ، من
أجل هذا زاد حذبها على ، لا تدرى أى أطايب طعام البحر
تقدمه لى ، أما زوجتى النارية فلا تسأل عن طعامى وشرايى ،
حقا انها امرأة يدل عليها خلقها الشرائى وهيهات أن تتنبأ
بخطواتها التالية .. وكنت أقول عن حورية البحر ، خرساء
خرساء ، لا بأس ، فان أكبر لذة عند العشاق هو التخاطب
بالعيون .

آمنت بهذا كله ، لا تقليدا فحسب ، بل بلذة وطرب
شديدين ، اننى لا أنفى عليهم حشو دماغى بهذه السخافات
كلها ، بل أشكرهم كل الشكر عليها ، كم كانت طفولتى بدونها
تبدو لى تافهة مملة سقيمة ، محدودة العقل بليدة الحس ضيقة
الأفق . فبفضل هذا التلقين وجدتنى أذفع دفعا وأنا فى سن
مبكرة الى الانتباه الى أن عالمنا محوط بأسرار كثيرة لا نعرفها ،
وأن وراء الصورة التى تتراءى لحواسنا صورة أخرى نجهلها
قلم ينقطع لى منذ ذلك الوقت تساؤل عن أسرار الحياة

والكون والعجب لها ، والعجب هو علامة يقظة العقل والروح ،
انه نشوة لا تماثلها نشوة أخرى ، ولما كبرت وقرأت أن بعض
علماء الفلك يقولون ان عالمنا هذا هو صورة معكوسة
(كأنما في مرآة) لعالم آخر بدت على فمي ابتسامة رضا وعاد
لي جو طفولتي بكل براءته وحيرته وتعجبه .

(« التعاون » ، العدد ٢٨٨ ، ١٩٦٨/٨/٢٥ ، ص ١ ، ٢)

يمين وشمال ..

ربيت أيضا في طفولتي على الايمان بأن اليمين رمز للخير والشمال رمز للشر ، والى اليوم لا بد لى أن أدفع بقدمى اليمنى قبل اليسرى اذا لبست البنطلون أو الحذاء أو اذا خرجت من البيت أو دخلت مكانا أرجو فيه خيرا لى ، أستبشر باليمين وأنظير بالشمال ، واليمن مشتق من اليمين ، واليمن هو الخير والبركة والقوة .. والشمال فى القاموس هو الشؤم .. وليس للكلمتين مصدر واحد كما فى اليمن واليمين .. أو قل ربما دل وجود حرفى الشين والميم فى الكلمتين على وجود مصدر قديم ضاع ، هو الأصل فى اشتقاقهما .

وواضح أن التفاؤل باليمين ترتب عليه التشاؤم بالضد وهو الشمال ، وهذا من سوء حظ كلمة الشمال وكل ما تمثله .. وأعتقد - وان لم تكن تحت يدي مراجع - أن هذا التفريق بدأ حين أدرك الانسان لأول مرة معنى الطهارة والنجاسة ، حكم بأن هناك أشياء طاهرة - كالماء - وأشياء نجسة كجثة

الميت ، فخصص يده اليمنى لتناول الأشياء الطاهرة ويده اليسرى للمس الأشياء النجسة ، وبدأ يتبارك بيده اليمنى وأخذ يعمل بها أكثر من عمله بيده اليسرى ، هذا تعليل لا يشفى الغليل لأن السؤال لا يزال قائما : لماذا اختار اليمين مثلا - دون اليسار - للطهارة والعمل ؟ • هذا الانسان البدائي العبقري الذى عرف كيف يأتى بالمعجزات : الزراعة - استئناس الحيوان - اشعال النار - التعبير عن نفسه - الرسم على جدران الكهوف - لا تزال حياته محاطة بالغموض •

ومما ساعد على هذه التفرقة بين العضو اليمين والعضو الشمال أن ظاهر جسد الانسان مقام على قانون الثنائية وتطابق الجزئين مع تعاكسهما ، كأنه باب من ضلفتين متماثلتين متعاكستين ينشق من منطقة على خط يخرج من وسط الجهة الى سن عظيمة الأثف ، ويمتد الى الصرة حتى العصعوصة فى نهاية العمود الفقرى ، وبقيت الساقان متدليتين ولكنهما خاضعتان للقانون ذاته •• فكل ما تجده على يمين هذا الخط تجده معكوما على يساره ، كأنه صورته فى المرآة • وأحب أن أذكرك هنا بما فعله الفنان الفرعونى حينما رسم جسد الانسان على الجدران •• رسم الرأس منظورة اليها من جانب (بروفييل) ونظر الى الجسد منظورا اليه من أمام • فلما جاء لرسم القدمين جعلهما فى صورة واحدة •• كلاهما قدم شمال •• أى الابهام هو آخر أصبع فى يمين القدم اليمنى واليسرى •• ولكنه فى

النحت التزم - بطبيعة الحال - النقل بصدق عن الواقع .

هذا هو قانون ظاهر جسد الانسان (التماثل وتعاكس
الجزئين) ولكن اذا فتحنا بطنه ونظرنا الى جوفه وجدنا هذا
القانون ساريا في بعض الأعضاء دون بعض .. فلنا جزءان
للرئة متقابلان متعاكسان ، وكليتان ولكن لنا قلب واحد ومعدة
واحدة وكبد واحد وطحال واحد .. ما هو سر اختلاف القانون
في الظاهر عن الجوف ؟ .. لا أحد يدري ان كان هناك منطق
جاز لنا أن نقول ان تطور الانسان لا بد أن يسير به الى أعمال
هذا القانون في جوفه كما في ظاهره فيكون له في يوم قلبان
وكبدان وطحالان ، لأن النقلة الكبيرة في التطور كانت في انتقال
كائن حي من التطابق على الجنين - كما في السمك ورأس
الطير الى التطابق والتعاكس من أمام - كالحیوانات الشديدة
والانسان - أي اجتماع العينين على سطح الوجه بدلا من أن
تكون واحدة عن يمين أو فوق وواحدة عن يسار أو تحت ..
اعذرني اذا سرح الذهن في عجائب صنع الله فلن يسلم من
التخريف .. ان عمرا كاملا ينصرف في تأمل عجائب خلقه
الانسان ، ينقضي ويبقى العجب على حاله .

أقول - عودا على بدء - اني كنت في طفولتي أتلقي
الضرب على يدي الشمال اذا هممت أن أكل أو أكتب بها ،
كأنني ارتكبت جريمة فظيعة ، وظللت بقية عمري لا أشهد

انسانا يستخدم يده اليسرى دون اليمنى الا اتقاني شيء من
القلق والنفور ، وأحسست أن هذا الأشول مخلوق شاذ ،
وخرق في قانون مستتب ونظام سائد ، واعتبرته من جنس
يختلف عن جنسي .. ولكن النفور يتراخي ويحل محله شعور
بالعطف ، أو قل بالرتاء ، وهذا تفسير ما قلته لك مرة سابقة ،
لما كبرت وقرأت ان بعض علماء الفلك يقولون ان عالمنا
هذا هو صورة معكوسة (وكأنما في مرآة) لعالم آخر بدت
على فمي ابتسامة رضا وعاد لي جو طفولتي بكل براءته وحيرته
وتعجبه .

د « التعاون » ، العدد ٢٨٩ ، ١٩٦٨/٩/١ ، ص ١٠

•• هذا العالم الخفى المجهول

انا تفقد بتجاوز مرحلة الطفولة احساسا غريبا - هو
لذيذ ومخيف فى آن واحد - بأن وراء عالم الواقع الذى نعيشه
عالمًا خفيا مبهما ، يحيط بنا ، ويتدخل فى حياتنا ، ويخاطبنا
صراحة أحيانا ورمزا أحيانا ، انها خسارة جسيمة ، لأننا نهبط
من الروعة والدهشة والاهتزاز النفسى الى وجود رتيب
وطمأنينة تافهة مقامة على مسلمات اصطلاحنا عليها ، وقلمنا
تناقشها ، وان بقى صوت ضئيل جدا يهمس لنا بخفوت أن
لا ضمان بأنها غير زائفة •• ولكنه صوت غير مزعج ، اذ اننا
درجنا على الاستراحة فى حضنه بتأجيل الاجابة على الأسئلة
الى الغد ، ونحن نعلم أن هذا الغد لن يأتى أبدا • حتى اذا
وصلنا الى مرحلة الرجولة تتبعنا بشغف تحسس العلماء لهذا
الواقع الخفى المجهول ، ولكن هيهات لهذا التبع أن يثير فى

قلوبنا ما كانت تحس به أيام الطفولة من الروعة والدهشة •
الخبز الطازج أصبح بآثنا ، وشتان بين الطعمين •

وقد نشأت في بيت لا أزعج أنه كان بدعة بين البيوت ،
غاية ما أستطيع أن أشعر به هو أن جوه كان يحملني وأنا في
سن صغيرة جدا على بدء الاحساس بهذا العالم الخفى المبهم •

ألتقاه أحيانا بفرع ، حين أسمع الرعد ، كان أهل البيت
يضطربون عند سماع الرعد ، ويرونه علامة على غضب من
الله ، وربما تمت أُمى ببعض الآيات ، واستغفرت الله كثيرا
وأنايت إليه •

فكان هذا الرعد من أوائل النوافذ التي أطلت منها الى
ما وراء ، وقلبي خائف •• أول صورة ارتسمت في ذهني لربنا
تمثلت لي في الرعد ، قابله أول مرة مع الأسف وهو غضوب •
أما أنه رحيم فقد تعلمته فيما بعد بالتلقين • وعشت أحاول
أن تطمس صورته الرحيمة صورته الغاضبة في قلبي ، محاولة
لم تمض بغير جهد •

ألتقى هذا العالم الخفى المبهم بفرع أيضا حين أخاف
من العفريت وأنا طالع السلم في الظلام ، أو وأنا مار بالليل تحت
البوابة في الصارة ، حيث تنتظرنى الست المزيرة ، لم يكن
الفرع أن العفريت أو الست المزيرة سيصيباني بشر ، بل

لا احساس بأن عالمنا مسكون بأقوام لا نراهم ، جنسهم ليس مثل
جنسنا ، مهما أحكمنا غلق الأبواب والنوافذ فلن نسلم أن يكون
معنا مخلوقات لا ندري من أمرها شيئاً •

وألتقى هذا العالم الخفى المجهول بشيء من التلذذ
والانبساط حين بصرنى أهل البيت ببعض الرموز ، تدل على
أن هناك قوى لا نعرفها نتحدثنا بهذه اللغة الحلوة الطريفة
الذكية ، اذا جاء أمى صوت السقاسقة قالت انا نتظر ضيفا ،
اذا ركبت فردة شبشب على الأخرى قالت : انا على سفر ،
اذا طرفت عينها أو شرقت وهى تشرب قالت : ان انسانا بعيدا
يذكرها فى تلك اللحظة ، اذا انكسرت المرآة أو الكوب قالت :
انها أخذت الشر وراحت • اذا سمعت صرخة البومة انزعجت
وقالت : ربنا يستر ، وفهمت منها أن هذا هو نذير الموت ،
هنا يعود الفرع فيختلط باللذة •

وتفتح لى نافذة أخرى على هذا العالم الخفى المجهول
وأنا أستمع الى أهل البيت بشغف ودهشة وهم يتحدثون فى
الصباح عن أحلامهم بالليل كأن لهم ولعا شديدا براوية هذه
الأحلام بعضهم لبعض • أما عمتى الأرملة التى تقيم معنا فقد
تخصصت فيما يبدو - فى أحلام تشبه الروايات الطويلة
المفككة ، بلا روابط بين المشاهد ، فهى تقول لنا : انها رأت
نفسها قد دخلت حديقة يانعة ، ليس كمثلهما حديقة فى الأرض ،

فيها أناس يلبسون أخضر في أخضر ، ثم اذا بها فجأة في محكمة مزدحمة فشدها امرأة من يدها ، تطلعت الى وجهها فاذا بها هي أمها التي ماتت منذ زمن طويل ، وأنها سارت فوجدت في يدها طائرا ، انقلب من فوره الى صورة أبيها مقبل عليها بوجه ضاحك الخ الخ . . . كانت عمتي لا تحاول تفسير أحلامها ، ليس فيها شيء يستحق التفسير ولكنها كانت سعيدة بهذه الأحلام التافهة ، كأنما تضاعف بها عمرها ، العجب من ذاكرتها التي استطاعت أن تروى هذا التفكك مرتبا . أما أمي فكانت متخصصة - فيما يبدو - في القصص القصيرة ، تروى لنا حادثة واحدة هي كل حلمها ، وكانت تصر على أن هذا الحلم رسالة موجهة اليها ، فتحاول تفسيره ، ربما رجعت الى كتاب كنا نعتز به كثيرا هو كتاب « تفسير الأحلام » لابن سيرين .

من هذه التفسيرات تبينت بشيء من اللذة والانبساط وأحيانا بشيء من الخوف أيضا - أن هذا العالم الخفي المجهول له لغة غير لغتنا ، فهو يتكلم معنا أحيانا بالضد ، يقول شيئا ويريد عكسه ، لماذا ؟ الله أعلم . فالمرض يشير بالعافية ، والافلاس هو الغنى ، والموت طول في العمر ، ولكنه يلجأ أحيانا الى الصراحة القاسية فلا يتكلم بالرمز بل يعنى ما يقوله ، لا أنسى انزعاج أمي ذات صباح لأنها رأت نفسها في الحلم عارية . قالت : ربنا لا يحكم علينا بفضيحة .

جزى الله « فرويد » - لا أدري هل أقول - خير الجزاء
أو شر الجزاء ، فحين قرأته وجدت تفسيرات معقولة لأحلام
لى كثيرة فى صبأى وشبأبى ، أنها كما قضت على العموض قضت
أىضاً على جانب كبير من سحر هذا العالم الخفى المجهول
الذى عرفته فى طفولتى .

(« التعاون » ، العدد ١٨٨ ، ١٩٦٦/١٠/٢٥ ، ص ٨)

•• الدودة والانسان ••

هل رأيت مرة اثناء دودة القز بورقة شجرة توت ؟ الدودة قلامة ظفر ، والورقة تقارب الكف ، ومع ذلك فقبل أن يرتد اليك بصرك تكون الورقة قد اختفت عن الوجود ، غارقة في جوف الدودة ، ولكن كيف حدث هذا ؟ اننا لا نرى لعاب الدودة وهو يسيل باحتدام شهيتها ، ولا فكيتها وهما يطبقان كالكماشة على طرف الورقة ، ولا ما في فيها من مصنع هائل ذاخر بالسكاكين والتروس وآلات القرم والطحين ، لا نعرف هل عيناها تبرقان من شدة اللهفة أم مغمضتان من فرط التلذذ، ولكننا نشهد بمتعة كبيرة مثلا فذا رائعا لمعنى الاتهام الذي لا يشبع ، للدأب الذي لا يكل ولا يمل ، لاعتماد حياة قوم على قتل أقوام •

ها هو الخروف قد تم ذبحه وتفخه وخبطه وسلخه ، اذا استثنينا الدم — فهو حرام — فلن يبقى فيه خير الا كان مآله الى الاتهام ، من أول العين الى الحافر ، ومن الرقبة الى

الأمعاء ، الكبد والطحال والقلب والكليتان من الأطايب ، فهي
شواء لوجبة الفطور يوم العيد . الفأر أسعد حظا منه .
لأن ذيله تعافه القطة . سيبقى كأنه شاهد قبره ، محطما على
الأرض ، والقبر يجرى حيث تجرى القطة . أما ذيل الخروف
فسيغيب أيضا في البطون . الأسنان لن تكف الا اذا أذلها برهان
أكيد على عجزها ، حين تصطدم بخصم أصلب من صلابتها
العاتية ستفضض القرائش حتى تنفتت ، وتمضغ . . . متمص
النخاع ، ستعالج الغضروف - وهو في قوة الصدف - حتى
تفصله بالكحت ثم تطحنه وتبلعه . لا تقف هذه الأسنان
الا حيث يبدأ وابدور الزلط . ان بقايا عظام الخروف لم تنج من
هذه الأسنان الا بقدره قادر .

ولكن في ركن المطبخ أو الحمام أو السطوح أو الحوش
تخلف شيء لا يمكن أكله مع الأسف . شيء فارغ . كأنه
المظروف الذي بقي في مكان الجريمة بعد اطلاق الخرطوشة ،
هو فروة الخروف . مكومة كأنها معطف القنيل . سقط عنه
ملوئا بالدم . المعطف مات هو الآخر بموت حشوه . فبدأ كأنه
رث . قديم . كهنة . روباكية . أصبح شاهدا لا على عز
صاحبه المرحوم . بل على بؤسه وفاقتة . هو لحافه ووسادته
بالليل . ودرعه بالنهار . يلبسه على اللحم . بلا قميص
أو جلاية .

ماذا تفعل بفروة الخروف ؟ انها لزجة . وككل شيء لزج

تصيب نفوسنا بالقرف • توحى بقدرة هائلة على أن تنفث التن
عما قريب • أن يعف عليها الذباب • لا نستطيع ان نجسها
الا بطرف عصا تقيب الغسيل في الصفيحة • تذكرنا برائحة
العطن الكريهة التي تكربنا كلما مرونا بالمدابع •

ماذا تفعل بها ؟ وقت البالوعة والمرحاض يتفرجان
بتشف على حيرتنا • (ورونا شطارتكم) يكفيهما الدم والروث •
أكبر الأمل اذن أن يرضى بها الجزار • • أجرا له • كله •
ليت • • أو بعضه • لا بأس • والا فسنظل ترقب بفارغ
صبر صوتا يجوب الطرقات • ينادى « جلد للبيع فروة للبيع »
سنجري لاستدعائه • وتقبل • بعد فصال قصير غير جاد من
ناحيتنا الثمن الذي يحرن عنده • • انه يمت بصلة نسب الى
(الترابية) • • نزلاء القرافة • مهنة مرذولة ، ولكن ما أشد
لزومها لأهل الفقيد • ورحمتها به وبهم • تقول أمى : « لنتنظر
رجال الاسعاف فتتبرع بها لهم • ونكسب ثوابها » • ولكن
لا أحد يضمن حضورهم ، يظهرون عيدا ويختفون أعيادا •
غلبت عليهم طباع الموظفين •

وحين تنزاح رمة الفروة من بيتنا • • انزياح الهم عن
القلب • • تختفى آخر ذكرى لنا عن الخروف الحى • ومأماته
الحزينة بالليل • ينادى أو يرد بها على تفجعات تتجاوب في
الحى كله • أصبح حصصا من اللحم • مشغولون نحن بفرز

ما نوزعه منها ، وما نستبقيه للشئ . للقلبي . للسلق .
للتشويح . للتخزين . لا يزال على هذا اللحم أثر من تضارة
الحياة . يتوهج كأنه اتفاضة الذبالة قبل أن تنطفىء .
أطياف روائه ولونه الوردى . تتذبذب كأنها آخر الأتفاس .
الخلايا تتلكأ في الموت بعد طلوع الروح .

ورغم هذا كله لا أدري كيف نشأت فوجدت في بيتنا
نموذجين لفروة الخروف . واحدة بيتي . شغل يد . من عمل
بواب لأحد جيراننا . له خبرة في الدباغة . بطنها كورق الكرتون
المجمد . وظهرها صوف ملبد . والأخرى ذهبت الى مصنع
وعادت . بطنها مصقول لامع . وظهرها صوف منفوش .
مسرحة . ملون بتفتة حمراء . ولكن « ما العن من سستي
الا سيدى » . كلتاها لا أطيقه . فرغم شيخوختها لاتزال
تعلق بهما رائحة الخروف وزخمتها . خزين حرارة بدنه في
صوفه لم يتبخر . حتى في عز الشتاء ينفث صهدا خائقا . وفي
بيوت كثيرة كانت فروة الخروف . البيتى . شغل اليد . هي
فراش الخادمة الصغيرة . على عتبة المطبخ أو من وراء بابه .

اختفت الآن فروة الخروف من بيوتنا . وحلت محلها فراء
أخرى . تجدها على أبدان أنساتى سيداتى في رحاب الأوبرا ،
أو في حفلات الاستقبال الهايلايف . . عقبال عندنا وعندك .

(« التعاون » ، العدد ٣١٥ ، ١٩٦٩/٢/٢ ، ص ١٠)

صورة مخيفة للناس والدنيا . .

صب على رأسى فى صغرى صهريج هائل من الحكم
والمواعظ . بالفصحى والعامية ، ثرا وشعرا ، على لسان
بنى آدم ولسان الحيوان ، رصيد ضخيم من الأمثال البلدية
أسمعه ممن حولى ، ورصيد أشد ضخامة منحدر من التراث
أقرؤه فى الكتب التى وضعت فى يدي ، نحن فى الشرق مصابون
بهوس تصيد الحكمة وتقنينها والتفنن فى صياغتها ، نقولها ونحن
نهز الرؤوس - دراية وخيلاء ، ونسمعها بمصمصة الشفاه -
اقرارا واستحسانا واعتذارا .

ولا أظن أن صيبا فى مثل سنى فى الغرب تلقى على أم
ناصيته هذا الشلال الذى تلقيته ، أنهم يتركونه يعمل ويلعب ،
ثم يرقبونه ، فاذا رأوه أخطأ أرشده الى الصواب بكلام كل
يوم ، فتكون النصيحة عملية . مستمدة من الواقع ، والتدريب
خطوة خطوة . أما أهلى ومدرستى فكألمما أرادوا لى أن

أكون فيلسوفاً من قبل أن تثبت أسناني البيض محل أسناني
الخضر •

ترنحت تحت هذا الشلال لا لقدرتة على سحقى فحسب ،
بل لأن بعضه كان يناقض بعضا ، بدل أن يعلمونى الفلسفة
أورثونى الحيرة ، حكم وأمثال تحض على الجد والسعى
ولو الى حد اهدار الكرامة « المحتاجة غناجه » ، وحكم وأمثال
تحض على التواكل « اجرى يا بنى آدم جرى الوحوش ، غير
رزقك ما تحوش » •• حكم وأمثال تدعو الى الاقتصاد
« والقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود » •• وحكم وأمثال
تزين لك « صرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب » •• الضد
والضد جنبا الى جنب • ولا من يقول لى : خذ هذا ودع ذلك ،
أو متى تأخذ هذا وتدع ذلك • بل قالوا « كل شاة برجلها
معلقة » تركونى فى حيص بيص •

لا عجب ان وقعت هذه الحكم والمواعظ على أذن من طين
وأذن من عجين ، على لوح من المرمر لم تعلق به منها قطرة
واحدة • ولعلى أكذب ، وربما كان هذا التناقض قد لبد فى
ضميرى منذ صباى وهو تعليل خوفى القديم الدائم من عدم
الاستقرار ومن الحيرة ، من بلبلة الفكر والعواطف ، غير أنى
أستطيع التأكيد بأن نوعا من هذه الحكم والمواعظ قد رفضته
منذ مبدأ الأمر رفضا قاطعا ، لفظته نفسى كما يلفظ الجسد

عضوا دخيلا ، لأنه كان يخالف طبعي ومزاجي ويرسم للناس
والدنيا صورة مخيفة .

وهذا النوع من شعبتين متلازمتين كالتوأمين اللصيقين :

الأولى - تحض بشدة على سوء الظن بالناس ، بجميع
الناس بل الحذر منهم ، بل (ولا بد لي أن أستخدم هنا كلمة
« بل » مرارا لأن الداهية ثقيلة ولأن التصاعد كان هو
القائد) بل تذهب الى حد التحذير من الأصدقاء بل من
الأقارب ، بل الى التأكيد بأن الأصدقاء هم أشد خطرا من
الأعداء . ما أكثر ما نسيت ولكن ذاكرتى تأبى أن ينمحي منها
قولهم - وهذا بالنشر - « الأقارب كالعقارب » وقولهم - وهذا
بالشعر - :

« احذر عدوك مرة

واحذر صديقك ألف مرة

فربما اتقلب الصديق

فكان أعلم بالمضرة »

لفظت نفسى هذه الشبهة من الحكم والمواعظ لأنها
تصميم بعالم تلقى فيه الناس بقلب مفتوح ، وتأخذهم بعبلهم ،
التسامح لا النفاق سلاحها ، تعلو من رابطة القرابة ، وتعشق

الصداقة • ستسأل : أو لم تبر بك تجربة أثبتت لك ان هذه الحكم والمواظ على حق ؟ أقول : ربما ، ولكن هذا هو النادر ، ان رضى لهذه الحكم والمواظ ربما أذاقنى المر قليلا ، ولكنه أذاقنى الشهد كثيرا • ولو انى أخذت بها لبقى لى المر على قلته وضاع على هذا الشهد على كثرته • نعمت بصداقات عديدة كل واحدة منها تكفى لتكذيب هذا الحشد من الحكم والمواظ ، ان أجمل ساعات عمرى هى التى تجتمعنى الى أصدقائى : بالكتابة أو المجالسة أو أخذ الذراع فى الذراع والسير كأننا على غير هدى ، اننى مدين لأصدقائى بأكبر قسط من السعادة نلته فى حياتى ، ما أحلى ترك النفس على سجيتهما مع انسان يحمل لك الود ويترك هو أيضا نفسه على سجيتهما •

أما الشعبة الثانية فهى حين رتبت الفضائل حارت ثم استقر رأبها أخيرا على ألا تضع على رأس القائمة الا فضيلة الكتمان والصمت ، الأدب العربى أغنى آداب العالم فى الاشارة بفضيلة عقد اللسان ، فأنت ترى ان هذه الشعبة لصيقة بالشعبة الأولى لأن من شروط الحذر كتمان السر واطباق النهم ، وحتى لو كان الصمت ضارا فهو أفضل من البوح •

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام •

رفضت هذه الشعبة كلها لأنى أهيم بحياة لا أجد فيها عيبا

أو دئسا أو دسيسة ينبغي سترها ، فاذا عقدت لسالي شغرت
بأنتى أكتهم اثما اقترفته أو خطة سوء أدبرها ، ما أقطع جدران
الصمت التى نقيمها من حولنا بدل التواصل فواصل وعوازل ،
ما أحقق الذى يتكلم عن نفسه خيرا يعلمه الجميع . . فنحن
نعيش فى عالم كل سر فيه ينفصح اما عاجلا أو آجلا ، ويأتىك
بالأخبار من لم تزود . هذه الشعبة من الأمثال والحكم
والمواعظ هى السبب فى أن كثيرا من الناس يعيشون داخل
قواقع ، بل ان بعضهم ليقفل الكتاب الذى يقرأ فيه اذا دخلت
عليه ، بحركة تلقائية ، كأن مجرد قراءته لهذا الكتاب سر ينبغي
كتمانها . انتى أرثى لهؤلاء الناس من كل قلبى .

(« التعاون » ، العدد ٢٥٩ ، ١٩٦٨/٢/٤ ، ص ٨)

أما الدروس من حوش المدرسة . . لا من الفصل

والكلام عن المدرسة الابتدائية التي تلقفتني من السابعة إلى الحادية عشرة من عمري . عجنت طفولتي الخمس يدين متخشبتيين في ماجورها المتحجر ، بفك عناصرها وتذويها في ماء آسن أولا ، والالاحاح عليها بعد ذلك بالضغط والهيد واللطم ، حتى اذا تم اندماج الكل في قوام واحد اقتطعتني بالتقريص ، بالزج في نار حامية رغيغا ماسخا (فليس في عجين هذه المدرسة ملح) يشبه جميع أرغفتها الأخرى التي تأخذ طريقها إلى المدرسة الثانوية وييدها شهادة . هذا هو هم هذه المدرسة . لها الظاهر أما الباطن فيظل مستعصيا كالنواة الصلبة ، العظام باقية تحت الجلد المصنوع لها .

في الفصل : الدروس حبر على ورق المصب في الذاكرة غصبا ، بلا فهم ، منبته الصلة بالحياة والطبيعة من حولنا . لا نعلم لماذا لا بد لنا أن نعلمها ، وما فائدتها . الجلسة بالأمر

تربيع الذراعين • لا عجب أن أصيبت يدي بالشلل من فرط
الأدب •

في الفصل : عين تراقب حركاتنا وسكناتنا ، وتهوى بالعصا
على الكتف بسن المسطرة على أصابع اليد في عز الشتاء
والقشيف ، وأحيانا على باطن القدم أيضا • الكتكوت الذي يفك
صاغرا رباط الحذاء ثم يخلعه ، فوق ألمه خجله من جوربه
الممزق • أما الصفع على الوجوه فهو علاوله • كان من المستحيل
ألا يكون بين طقم المدرسة من هو غير مصاب بالسادية
أو ببذاءة سكية عجزية أو بدمامة الروح والذوق •

في الفصل : يجلس التلاميذ صفوفًا حسب طول القامة
أو البصر • شريكى فى التختة مفروض على ، ان لم أكرهه فهو
ليس أعز أصدقائى •

فاذا دق الجرس ايذانا بفسحة طويلة اندفعنا كطلقات
الرصاص كأنما من بؤس السجن الى نعيم الحرية • ما أعلى
الزئيط والزعيق • شاع الجرى والقفز • استرد كل تلميذ ذاته ،
أصبح فردا لا بد أن يجد مكانه فى المجتمع الطليق فى الحوش •
أن يواجه البشرية أخذا وعطاء • هنا - لا فى الفصل - محك
قدرته على الالتحام والمشاركة فى اللعب ، وفى معجم الألفاظ
المتداولة ، والرموز المتفق عليها ونوع الدعاية الرائجة • سيتبين
فى الحوش لا فى الفصل : هل هو قادر على هذا الالتحام فيندمج

أم هو عاجز عنه فينفضل • هل هو اشعاعى أم انطوائى • كيف
يكون تلقيه للنصر وتلقيه للهزيمة • سيتبين ما هو طول هذا
الخييط من المطاط الذى يشد عليه عزمه وارادته ، وأين ومتى
ينقطع •

ستندلق أمامه فى الحوش مختلف الطبائع ، ولأنها لاتزال
بكرا وخاما فهى مجردة من الأغطية والأقنعة ، لا تخجل من
عريها ، مأخوذة كلها مأخذ القضية المسلم بها • لكل منا حقه فى
الوجود ، فلم ينضج البصر والفهم بعد للاتباه الى القضاء ،
والعجب له • ليس فى اليد بعد قانون متكامل تبنى عليه
أحكام • أشبه حوش المدرسة بباطن الغابة •

فى حوش المدرسة استعراض للوداعة ، أحيانا للسكنة ،
لشهوة الاعتداء ، للسماحة والمكر ، للقناعة والجشع ، للكرم
والبخل ، للخطف والشحاذة ، للقدررة على القيادة والرضا
بالانقياد • صراع خفى لا ينتبه اليه أحد بين نوازع
الخير ونوازع الشر ، ولكن حوش المدرسة يشبه الفصل فى
خصلة واحدة ، هى خلو الاثنين من الرحمة ، بل نجد فى الحوش
أن قسوة الطفولة - التى يقال عنها انها بريئة ، ملائكية - أعتى
من قسوة المعلم فى الفصل • بعض التلاميذ لقوا فى الحوش عذابا
لا يتصوره عقل • لا رحمة للأضعف أو للأذل أو للأخيب ،
أو حتى للمصاب بعاهة هو غير مسئول عنها •

في حوش المدرسة الابتدائية تلقيت أول دروس في الجنس .
في الفصل كنا لا نلم به الا حدسا ، في درس الدين حين يكون
الكلام عن النجاسة الكبرى والنجاسة الصغرى ، ومتى يجب
الغسل ، ومتى يجوز الاكتفاء بالوضوء . تتقلقل في جلستنا
ونهر بضحك ماسخ في سرنا . وفينا من يحمر وجهه خجلا
ولا يدري لماذا . ترى ما هذا السر الذي يحجبونه عنا ؟
لاشك أنه مهيب جدا ، وان كنا لا ندرك أهو جميل أم قبيح ،
رغم الايحاء لنا بأنه « عيب » من أشنع العيوب .

أما في الحوش فجو يتبجح للغرائز أن تتنفس . من أجسادنا
الغريرة بدأ يتصاعد هبو لا يزال كأنه تآتأة من يتعلم الكلام .
لو كانت لنا آذان بعض الحيوان لسمعنا أزيز هذه التآتأة
التي تملأ الحوش خفية منا . الفرد في الواحد مشرب لأن يكون
فردا في اثنين ، النوازع الى التكامل بعاطفة الحب تبدأ أولا باسم
الصدقة ، يبحث كل تلميذ عن رفيقه . قد يجده وقد لا يجده .
(هذا هو الحال بقية العمر) فإذا وجده أحس بالسعادة الكبرى
في صحبته ، هو الأثير عنده تمتد اليد لتلمس اليد ، ليسرى
التيار فيهما معا . ما أطيب وضع الذراع على الكتف ، أو أخذه
للذراع الآخر في تشبيكة حميمة . تموج هذه العلاقة عادة
بالاقبال والصد ، بالعتاب والاسترضاء ، بل بالغيرة المسزقة
الدمرة . ما أحلى الصلح بعد خصام . ما أتعس الذي خانه

صديقه فطار من يده الى عش غير عشه . هذه هي التجارب
الأولى التى تنفض من القلب كل قدراته على التموج فوق بحر
العواطف ، على تذوقه لما بين أقصى اللذة وأقصى الألم من
درجات متفاوتة .

هذه هي البداية البريئة ، ثم لا تلبث أن تفترق الى طبقة
تعلوها فى الافصاح عن الغرائز . يحوم فوقها شبح هذا السر
الذى يخفيه المعلم والأهل عنا . فهذا التلميذ الصبوح الوجه ،
أو الملاحظ الجسد ، أو أبو العيون الخضراء التى يسيل منها
العسل ، أو هذا المفرط فى أناقته ، أو صاحب هذه اللثة
العجيبة — الحلوة — اذا تكلم نجد بيننا تميزه عن الجمع .
يخيل الى أنوفنا أنها تشم فيه رائحة تجذبنا اليه . نأخذ نرقب
علاقاته برفقائه وأساتذته . أصبح كل واحد منا بوليسا سريا ،
يدور الهمس عنه ، يتكاثر حوله كالذباب وقطعة السكر ، أشدنا
جرأة وقدرة على الاعتداء ، ونقف نحن نرقب سرا وتابع حيل
الصائد لاقتناص فريسته ، وحيل الفريسة للهروب ، هل تقع
أم لا تقع .

أتدرى ماذا فعل المعجزة ؟ ألف بعضهم من فورهم جمعية
أطلقوا عليها اسم « جمعية حماية الآداب » ، غرضها الأوحاد
اقتاذ الفريسة من الصائد .

فى حوش المدرسة — لا فى الفصل — تلقيت أول درس هام

في حياتي . فقد خامرني وأنا لا أزال في هذه السن الصغير شك بأن أعضاء « جمعية الآداب » ليسوا حريصين على عفة الذي يدور حوله الهمس ، بل غاضبون لأنها قد تقع في يد غير أيديهم . بدلا من أن يذهبوا للصيد صراحة وبشجاعة تسللوا اليه بالمكر والحيلة تحت قناع حماية الفضيلة . وكان أول فوز للجمعية مدعاة لأن يتحول الشك الى يقين ، ف رئيس الجمعية استولى على التلميذ الذي يدور حوله الهمس . أصبحنا نراهما الا معا ، كأنهما في خلوة رغم الزحام ، بين الابتسامات وقطع الشكالات ، وسمعنا أهما يتفقان على مواعيد بعد الخروج ، وأنهما يستذكران في بيت الصائد .

والله عال . والله عال . نسي الخائن أن هناك جمعية اسمها « جمعية حماية الآداب » ، وأنه هو رئيسها . ونسى أنه مكلف بدعوتها للائتمقاد ، فلما انحل الرئيس انحلت الجمعية . ماتت بفضل فوزها الأول .

لم يكن غضبنا أنه وصل دوننا ، بل أنه استعبطنا واتخذنا مطية وسلاحا يرهب به ضحيته .

منذ ذلك الدرس الأول في طفولتي لم أقطع بقية حياتي عن الشك في كل واعظ اذا علا غليانه الى درجة التشنج والنحيب تفجما للفضيلة المذبوحة .

(« المساء » ، ١٨/٣/١٩٦٨ ، ص ١)

من كناسة الذكريات

كان احتفال البيت كله - الأب والأم والأولاد والصغار -
بزجل جديد ليبرم - بالعامية - لا يقل - وهم من عشاق
الفصحى - عن احتفالهم بقصيدة جديدة لشوقي . وصول
الصحيفة اليومية التي نشرت القصيدة - بالتشكيل - في
صفحتها الأولى (فلشعر شوقي دون بقية الشعراء مكان الصدارة
مهما كانت الحوادث والأخبار) ، أو المجلة الأسبوعية التي
نشرت الزجل - بدون تشكيل طبعا - في صفحة داخلية (لم
تكن الصحف اليومية تنشر بعد شيئا بالعامية . تركتها لبعض
المجلات ، فعصر صلاح جاهين كان لا يزال في عالم الغيب)
يالها من لحظة مضيئة في حياتهم . انهم تربوا على حب الكلمة ،
سواء مكتوبة سواء منطوقة ، والاعجاب بقدرتها حين تنزل منزلها
الحق والمبتكر معا على امتاع الذهن والروح معا .

الأيدي تتخاطف الصحيفة أو المجلة والحجة اما مقام الكبير
أو دلال الصغير ، خطف يعرض الورق للتمزق . ولكنه خطف في

نطاق الود لا العداة . فهو مصحوب بالضحك والمعابثة . ان كان هناك غضب عند الهزيمة ، فهو مصطنع ، سريع الزوال ، ينتهى بالمهادنة ، لا يكفيهم أن يقرأها كل منهم بعينه ، ولنفسه بنفسه . لا بد لهم بعد ذلك أن يتحلقوا حول من هو بينهم أكثرهم تمكنا من اللغة واجادة لللقاء وهياما بالشعر الى حد أن تأخذه الجلالة ، ليتلو النص عليهم ملتزما نغمة الانشاد وحركة الخطيب ، لتشارك الأذن أيضا في المتعة . والعجيب ان لسان السامع منهم حين كان ينطق سرا في فمه بالكلمات وهو يقرأ النص بعينه ، ولنفسه بنفسه لم يكن يحس له بهجة التلاوة التي يحس بها الآن وهو ساكت داخل القم حين يسمعها تتلى عليه انشادا ، كانوا على غير علم منهم شهداء بأن الشعر فن يزكو بالانشاد المنعم جهرا ، ثم لا يجد تمامه ولا كمال رسالته الا اذا كان انشاده على جماعة من المستمعين المحبين له ، فهو في الأصل فن خطابي غنائى جماعى . انه يتطلب أن ينشأ تيار عاطفى متجاوب بين فرد وجماعة ، كما يحركهم ويطربهم هو بأنغامه المتكررة ومعانيه الفذة ويرفعهم من هموم الأرض الى صفاء ذرى الفن والجمال يحركونه هم بعناقهم له ، والاستجابة له ، فيثبتون ايمانه بموهبته ورسالته ، شرفها ونفعها وبهائها ، الوحي للشاعر حمى لا يتبرد منها الا اذا استحم في تيار عاطفى جماعى يتجاوب له ، وهو الذى فجره .

ومع أن اللغة العامية كانت هى خبزهم اليومى فانهم كانوا

أقدر على قراءة القصيدة بالفصحى واجادة انشادها منهم على
قراءة الزجل بالعامية ، دع عنك انشاده ، فحركات التشكيل
والتنوين مساعدا على التنغيم . والحرف في الفصحى ثابت
لا يتبدل ، أما في العامية فالحرف يتبدل . كالهزة بدل القاف ،
والتاء بدل الثاء ، والكلمات - رغم صحة الوزن في البيت -
تبدو منشورة فرادى ، كأنها غير مترابطة ، لذلك كان يرسخ في
أذهانهم من القصيدة أبيات ، على الأقل بيت واحد يكون هو
بيت القصيد . أما عن الزجل فلا يبقى منه شيء . فكان يحثهم
ومتعتهم وظفرهم في قصيدة شوقى هو النغم والمعنى المبتكر ،
أما في زجل بيرم فهو النكتة ، خفة الدم واستجلاء سر عبقرية
اللغة العامية ، ظرفها ولطفها وبراعة كنايتها ، وكانت يضاعتهم
من النصوص العامية قليلة ، وقديمة ، كتاب يضم مجموعة أزجال
الشيخ القوصى ، وزجل قرأوه مرة وبقي شبحه ماثلا في أذهانهم ،
للأستاذ عبد الله النديم ألقاه ارتجالا في سباق مع الأدبائية
في طنطا ، أيام الصعلكة ، ولكن كل هذا كان له طعم الأكل
البايت . ذوق العامية تحول ، انه سريع التحول ، فلم يجسدوا
من يعبر عن حلاوة العامية في عصرهم الا في أزجال بيرم ،
لا يدانيه شاعر آخر ، اللهم الا اذا استثناوا حسين شفيق المصرى ،
فقد كان هو أيضا محبوبا عندهم ، ولكنهم لا يدرون لماذا
قدموا بيرم عليه ، لعل السبب أن حسين كان يطلع عليهم مرة
بزجل بالعامية ، ومرة بقصيدة بالفصحى - فهو موزع الاخلاص ،

لا يثبت على حب ، أما ييرم فقد كرس نفسه • كل نفسه ، لحب واحد ، هو حب العامية ، كان عندهم هو اللغة العامية في عصرهم • وكانت هذه اللغة هي ييرم • كانوا شهداء على غير علم منهم بأن الفن هو شديد الغيرة ، لا يقبل غريبا •

ولا ينسى ابنهم الثالث الى اليوم خيبة الأمل التي ضعفتها مرة ، كانوا قد فرغوا من قراءة زجل لييرم جماعة ، وانشأوا جميعا بما فيه من ظرف وخفة دم • فأخذ وطار به الى صديق له وقال له جئتك بشيء عجب ينشرح له صدرك ، استمع ، وفرد الصحيفة وبدأت السمكة التي خرجت من بحرها تقرأ ، واذا لسانها يتلعثم ، واذا النغمة متأية عليه ، هوى الرجل من شاهق ووصل الى أذن صاحبه مهزوما مهشما ، قلم يتجاوب له ونظر الى السمكة مندهشا حائرا من تفسير لهفتها وفرط العجب ، وأخذ صاحبنا يقلب الورق ليبحث عن الظرف والالطف ، وخيل اليه أنهما سقطا منه في الطريق ، فكان شاهدا على غير علم منه بأن أزجال ييرم لا تزكو الا اذا جاشت لغته من قبل عواطف المتلقين ، انها ضرب من الفن يحتاج الى ألفة ودربة قبل أن يتم تذوقه ، وعاد الى بيته مدلبلا الأذنين • وقد باخ تحفزه وتلجت لهفته وان زاد حبه لأهل بيته وخدمه لربه أنه نشأ بينهم •

وظل البيت وفيها لييرم ، باقيا على حبه والاخلاص له ، يحزنهم

أشد الحزن أن يفلت منهم زجل له ، وظلوا يتتبعون أخباره ،
ويرثون له وهو يتلطم في غربته في فرنسا ، ويضحكون معه وهو
يروى لهم حكايات « سيد ومراته في باريس » . ما أشد
اعتزازهم باختفاظهم بأعداد مجلة « المسلة » التي كان يصدرها
ويعجبون بفضلها بجرأته ووطنيته ، وان ضاق صدرهم قليلا
ببعض « التلميحات العامية » الفجة من قولة « الباميه الملوكي
والقرع السلطاني » تحية لمولد ولي العهد ، حقا أن الخط
الفاصل بين رقة الذوق وفجاجة في العامية وثيق كالصراط يوم
الحشر ، وكانت أعز أمنية لهم أن تكتحل عيونهم برؤية بيرم ،
حبذا الجلوس اليه ولو مرة ، أما الاختلاط به ومصادقته فأمل
يعيد المنال ، لأن فيهم بطبعهم عزوفا من الهجوم على الناس .
ورمى الجنت عليهم ، أما اذا جاءهم انسان فأهلا وسهلا ،
يعوضون بالاغراق في الحفاوة به والاسراع الي مصادقته ما فاتهم
من الروابط التي عجزوا هم عن توثيقها بجهدهم ، ولما جاءهم
ذات يوم خبر عودة بيرم لمصر ونجاته من البوليس كان هذا
اليوم عندهم يوم عيد ، (ويبرم كلمة تركية معناها : العيد وتنطق
بفتح الباء وتسكين الياء) .

يرجع مرجوعنا ، كبر الابن الثالث وبدأ يكتب كلاما في
الصحف والمجلات ، لم يعجب وان كان من العجيب أنها قبلت
نشره ، فتمطع ذات يوم وكتب مقالا يشيد فيه ببيرم وأزجاله ،
وعده أيضا اماما في فن القصة القصيرة ، اغاظة لمن يكتبونها

بالفصحى ، وظهر المقال في مجلة ، فتمطع وحزمها وأرسلها
بالبريد المسجل الى بيرم وهو مقيم في باريس ، بعد أن حصل
على عنوانه من الصحيفة التي ينشر فيها مذكرات « سيد ومراته
في باريس » . كأنه يريد أن يقول له : في مصر انسان يحبك
ويعجب بك ويشيد بفنك ويهمه أن يبلغك هذا الحب وأنت في
غربتك ، الحقيقة أنه كان يريد أن يقول له قبل كل شيء : انظر !
اننى بدأت أكتب ! أصبحت أسير في ركابك .

لم يحدث أن قطع نداء من ناشئ لأستاذ ما قطعتة هذه
المجلة من مسافات عبر البر والبحر ، ومع أنه كتب عنوانه تحت
امضائه فإنه لم يتلق ردا . يقول وهو يغالط نفسه انه لا يطمع
أن تصله كلمة شكر ، كل الذي يرجوه سطر واحد يخجل من
« بيرم » تحية ، ليمتد بين الاثنين جسر ولو في الهواء .

ومع ذلك فمن فرط حبه لبيرم لم يحزنه أنه أغضى عنه
وأهمله ، دون أن يدري أن نفقة ارسال المجلة بالبريد المسجل
كلفت المحب نصف مصروفه الشهري .

ومرت شهور ، وربما أعوام ، ونسى حكاية المقال
والمجلة .

وذات يوم ابتسم له الحظ ، والتقى ببيرم ، فذكره بحكاية
المقال والمجلة ، أول كلام . اعذره فقد كان لا يزال في ميعة
الصبا ، متلهفا على شهادة بأدبه تخرجه من الظلام الى النور ،

سأل يريم : هل وصلته المجلة ؟ هل قرأ المقال ؟ فإذا به
لشدة دهشته لا يجد من يريم شكرا ولا حنانا ، بل وجده قد
أربد وجهه وانبر وفاجأه بقوله :

— هو أنت ؟ الله يخرب بيتك !

ثم روى له أنه كان في باريس يشكو من الجوع • ليس
في جيبه من الفرنكات ما يكفي لأكله في يومه • انه ينتظر على
أحر من الجمر أن يصله بالبريد أجر بعض مقالاته • فلما
وصله اخطار من البريد أن له عنده طردا مسجلا هرع اليه
كالمجنون • اذن جاء الفرج ، وأيقن أن الأمر اختلط على
البريد ، فالذى وصله ليس طردا مسجلا ، بل مطروفا مسجلا
داخله شيك على بنك ، والا فان صديقا في مصر قد حن عليه
فأرسل له بعض الملابس أو بعض المأكولات • ومنى نفسه
بدفعه أو شبع ، فإذا به يفاجأ بالبريد يطالبه بدفع أرضية لأنه
كان قد غير عنوانه أكثر من مرة فلم يصله الاخطار الا بعد
تأخير •

وسأل عن المبلغ المطلوب فإذا به يستنفد كل ما في جيبه •
لو دفعه لا يبقى فيه فلس واحد ، والجوع باق يعطق فيه ،
فحسى نفسه وحصافته من شدة اللهفة ، ودفع المبلغ فإذا به يستلم
طردا ما كاد يفكه حتى وجد فيه مجلة ، قديسة فوق البيعة !

رماها على الأرض من فوره وهو يلعن ويسب من أرسلها له
وتسبب في دفعه للغرامة ، وهي كل ما يملك ا

ثم أنهى روايته وهو يقول : تعلم الآن أنتى لم أقرأ مقال
حضرتك يا سيدى ..

وكانت قد ارتسمت في ذهنه لييرم - غيبا - صورة رجل
ظريف ، بجبوح ، ابن نكتة ، سريع الاقبال على جليسه ويهش
له . رجل يكره الغم والنكد ، تاج من الأحقاد ، لا يحب
الشكوى ، سعيد بالمكائنة التي بلغها .. فاذا به لشدة دهشته
يجد ييرم حين التقاه على تقيض هذا كله . وجدته انسانا يحب
العزلة ، من الصنف الذى يكره أن تلمس يد غير يده ذراعه
أو كتفه . يطيب له أن يجلس وحده في مقهى بلدى في حى
شعبى ، منقبضا ، مكورا على نفسه . والتكوير أيضا صفة جسده
ورسم وجهه . ملامحه تكاد تنطق بأنه يشكتم زمجرة ترتكض
في أحشائه ، خيل اليه أنه يجز على أسنانه . ولما جلس اليه أحس
أنه لا ينتظر منه الا الحديث المقتضب ، كلمة ورد غطاها ،
ليس له صبر ولا مرارة على اللت والعجن . فاذا تحدث هو لم
يكن حديثه الا عن شكوى من مطربة أكلت حقه ، وعن الاذاعة
التي أهملت أوبريت له . في صوته نغمة الشكوى من ظلم
واقع عليه ، وأن حقه مهضوم .

لا يستطيع أن يجزم أن هذا هو طبع ييرم الغالب عليه

في جميع حالاته ، مع جميع الناس ، ولكنه يستطيع أن يشهد أنه هكذا وجدته في المرات القليلة التي جلس فيها إليه . ثم صار بعد ذلك يتحاشى اقتحام خلوته ، لأنه لم يفلح - كما كان يتمنى - في أن يمد جسرا بينه وبينه ، هذه المرة على الأرض لاعبر البر والبحر ، ليجد في نهايته يرم الذي تغنى بأزجاله مرارا ، قارئاً وسامعا ، فكان يسكر طرباً للطفه وخفة دمه .
وظل يتتبعه من بعد ، ثم بدأ يضع يده على قلبه خشية أن يفتال تحول ذوق العامية السريع امام العامية في عصره ، فيسبته الزمن ومصطلحات جديدة توافق عصرنا جديدا يقدم بخيله ورجاله وسلطانه وهيلمانه .

(مجلة « النجاة » ، العدد ١٣٧ ، مايو ١٩٦٨ ، ص ٢ - ٤)

وجها .. لوجه .. !!

أول مرة شهدت فيها انسانا يحتضر أمامي • يكاد فمي
يلمس فمه من فرط انحنائي فوقه • أطل على تلك اللحظة المذهلة
التي تقلب الحياة فجأة الى موت ، وال (أنا) فيمن يلفظ
آخر أنفاسه الى (هو) أبدية • تنقل بقية الوجود الى عدم ،
الحركة الى جمود • تعدد تعبير متجدد الى شلل قناع على وجهه •
هل يريد أن يقول لنا شيئاً ؟ • هيهات له ولنا • لغته ليست
لغتنا • انتهت الصلة بيننا بلا عودة • تنقل بثة واحدة منطوق
جميع الفلاسفة في عقد صلح بيننا وبين الكون الى لغز مستبد
لا يعرف مخلوق سره •

انه السر الالهي لا نملك ازاءه الا السكوت • ليس في
يدنا علاج ، ولا طاقة لنا على الفهم • سكوت يجمع بين بلسم
الرضا والتسليم بحكمة الله ، وجرح حسرة بلهاء مشوبة بشيء
من حنق مكتوم نضجل من الجهر به • فالذي يجهر به نراه جن
أو كفر •

وقد أريد لى أن يكون أول موت أشهده هو موت مصفى
من كل عارض عاطفى قد يزيغ بصرى عنه أو يفسد على الرؤية
المباشرة المحايدة • لادخل فى نظرتى للذاتية أو المصلحة
أو الهوى • لن أكسب شيئاً ولن أخسر شيئاً ، فالذى حضرت
موته لم يكن من أقربائى أو أحبائى أو أصدقائى ، بل كنت
لا أعرف اسمه ولا آماله وهمومه ، ولا أين يسكن والى من
يؤوب حين ينتضى سعيه فى يومه ، فكأنتى فى معمل كيمائى نجح
فى عزل ميكروب الموت ووضعه منفصلاً تحت المجهر أمامى ،
بلا طفيليات •

وقد يظن من كلامى — كما يقضى منطقته — أتنى حدثت
لقدر رحيم أن قسم لى فى التجربة الأولى هذه المواجهة المحايدة
فبصرنى دون أن يفجعنى ، ولكن العكس هو الذى أقصده
من كلامى ، فان هذه المواجهة كانت لها عندى بسبب هذا
الحياد بعينه أثر العنف المزلزل ، لأتنى رأيتنى لا أحضر موت
انسان ، بل موت الانسان •

فأريد لى كذلك أن يكون أول موت أشهده هو موت يعد
أبداع مثال على أن الذى يربط الانسان بالحياة انما هى شعرة
أوهى من خيط العنكبوت ، ها هى ذى تنقطع صدفة ، ومن
حيث لا تنتظر وضد كل منطق وحسبان وتقدير ، كأن السخف
صفة لا تعرفها الحياة وحدها أحياناً بل يعرفها الموت أيضاً

أحيانا ، والسخف يليق بالحياة اللعوب ولكنه لا يليق بالموت
الجليل . من أجل هذا زاد ذهولى ضعفين .

لم يكن من تلامذة فصلى ، بل كنت أراه وقت الفسحة في
حوش المدرسة السعيدية (١٩٢٠) أو وهو راكب في ناحية
أخرى من عربة الترام وأحيانا مشعبطا على السلم ، أصادفه في
الاياب عصرا أكثر من الذهاب صباحا . لم يدر بيننا كلام ، ولم
تبادل التحية ، ولكنه كان مع ذلك مفروزا عندي عن بقية
زملائى المجهولين غير منضم الى شلة ، تكفيه نفسه ، يعتز بكرامته
يستوقف نظرتى انفراده بكبسة طربوشه فوق رأسه ، كأنما
يلبسه لبس عمامة . رأس ضخم يبدو داخل الكبسة كأنه غير
مستدير بل مربع كحلقة العمامة .

ما فتئت منذ صغرى أفتن بضخامة الرأس واتساع الجبهة
وارتفاعها ، وحبذا لو كانت مضيئة غير كايية . هي عندي
« دينامو » جبار أحس احساسا أكيدا بأن تيارات كهربائية
خفية تنبعث منه ، ومازلت مفتونا رغم الأبحاث التى تفصل
بين الذكاء وحجم الرأس . وقررت أن له عقلا كبيرا وذاكرة قوية ،
يهضم ما يقرأ أول مرة ولا ينساه . وغبطته على حسن حفظه .
عينان صافيتان يترقرق فيهما الحياء ، تريدان أن تضحكا ومنك
أن تشاركهما الضحك . . . فى صمت ، وحتى من بعيد لبعيد .
فطرة ثابتة غير تائهة ولا مبشرة ، كأن النظر عنده لا يعنى

الا التأمل • النظرة هي التي جعلتني أقرر أن رأسه الضخم يحوى عقلا هو أيضا ثابت غير مضطرب ولا مرتبك ، له قدرة فائقة على الترتيب والتصنيف وتقديم الأهم على المهم • يتناول كل شيء في أوانه • اذا عكف على عمل لا يقوم عنه الا اذا أتمه ، حتى ولو دق الطبل البلدى الذى لا ينجح شيء سواه فى هس الوطاويط اللاصقة بوجه ضحيتها ، وأنه اذا قرأ كتابا للمتعة لم يعدل عنه بعد صفحات قليلة لغيره ، ثم لغير غيره •

الملل عنده نوع من الدلع والصبر رأس الفضائل •

اذن هي رأس كالزلطة اذا خبطتها فى الجدار انكسر الجدار ولم تنكسر هي •

كتفان عريضان وان كان الجسم قصيرا - أشبه ما يكون بمثلث مقلوب القاعدة - لاشيء يحمل مثل هذا الرأس الضخم! الا مثل هذين الكتفين العريضين • ربطة عنقه مشتراة ولا ريب من على عربة يد أو علاقة فى درفة فى سوق البواكى بالعتبة الخضراء • بريق على فشوش ، ولون لا تضمه (باليت) أى فنان حتى ولو كان من أنصار السيرالية ، ومع ذلك كان من الواضح أنه معتر بأناقته ، لأنى لم ألمحها قط مزحجة من تحت ترقوته الى يمين أو يسار ، أو الطية القصيرة التحتانية منفلتة هاربة من تحت الطية الطويلة الفوقانية • عند أغلب زملائى حينئذ ربطة العنق مقص مفتوح •

كل شيء فيه ينتهي الى أنه من أصل ريفي متقشف ، مستور
رغم الفقر ، ولعل صلابه رأسه الضخم حملني على الاعتقاد بأنه
من الصعيد . ولو زاره « دارون » لقال ان الضرب بالشوم
فوق النافوخ هو الذي أنتج صلابه هذه الرؤوس ، وخيل
الى أن جسمه قد ترعرع على طعام عماده البصل والعسل
الأسود ، وأنه لكثرة أصابته بالأمراض أصبحت له مناعة تغالب
أفتك الميكروبات .

جسم خليق بأن يعيش مائة سنة ، دون أن يعتم بصره
أو يتهم فكه ، وكنت واثقا أنه سينجح سنة بعد سنة ، وأنه في
المهنة التي سيختارها سيصبح أستاذا يلمع اسمه لا ارضاء لنفسه
فحسب ، بل لأسرة تحتضنه وترقبه وتعلق عليه أكبر الآمال ،
ستطول به رقبته في القرية ويعم خيره ويفيض على أهله وعشيرته
كلها .

وقبل أن أتم حديثي عن المدرسة دعني أقدم لك كامل
أفندي الأزوت ، لأنه سيلعب دورا كبيرا فيما بعد . شاب نحيل
ضعيف دائم الارتباك واللهوجة ، لا تراه الا مندفعا من باب
يصدمه في الدخول والخروج . يلبس نظارة بلا اطار تحتقر
الأذنين وتنسبك بقبضة الأتف بكماشة من ذبابتين ، لا يربطها
بقيطان الى عروة سترته ، وكان يدهشني أنها رغم اندفاعه لم
تسقط قط أو ترتفع فيها كفة عن كفة . هو محضر معمل الكيمياء

في المدرسة ، وكنا ننظر اليه باستعلاء واستخفاف ، فلا هو أستاذ ولا هو تلميذ أو فراش ، بل هو شيء بين بين • وكنا نؤمن أنه بلغ ورضى أن يقف في المؤخرة لأنه عاجز عن شق الصفوف • لن تراه في الحلقة الملتفة حول الحساوي الا واقفا على الهامش ووراء رجل أطول منه •

وكان أستاذ الكيمياء قد طلب من كامل أفندي ذات يوم أن يعدله الأزوت قبل بدء الحصّة • فلما دخل المعمل ونحن معه لم يجده فصرخ مستفهما : « يا كامل أفندي •• الأزوت ؟ •• » منذ تلك اللحظة أصبح اسمه عندنا كامل أفندي الأزوت ، وزاد استخفافنا به •

في عز حر صيف وعز المذاكرة •• لم يكن قد بقي على الامتحان الا أيام معدودات • أجساد التلاميذ وعيونهم ذابلة ، مجهدة • الغيطان التي مررتا بها في الصباح ممتدة من كوبرى الزمالك الى الكوبرى الأعمى (هكذا كان اسمه) تعلوها شجيرة من رطوبة ثقيلة ، ومع ذلك لم تخفق بهجتها ، بل زادت سحرا بغموضها • لا يملك القلب ازاء جمال الطبيعة الا أن يسبح بحمد ربه ، ثم ييجث عن شعر يحفظه ليرتله سرا • ليس هناك الا فيلا واحدة صغيرة ، هي لشقيق حافظ رمضان ، ثم قرية العجوزة كأنها دمل في وجه القاهرة •

في العودة ظهر (اذ كان اليوم يوم خميس) الغيطان تكاد

تسقط من شدة القيظ . كل ما تلمسه ساخن حتى خشب مقاعد الترام ، بما في ذلك أسفلت كوبرى الزمالك ، تستطيع أن تقلى فوقه بيضة . كنت راكبا همدانا في آخر مقعد في العربة القاطرة محشورا بين معارف وأغراب ، ظهري الى ظهر السائق في مقدمتها . وأمامي العربة المقطورة تتأرجح من فوق لتحت ومن يمين الى يسار وبالعكس .

رأيته واقفا مزحوما مشعبطا على حافة طرف السلم الكنز في مقدمة هذه العربة ، قد ثبتت له قدم وبقيت الأخرى طليقة كأنها ملتذة بحريتها في الهواء في كل مطب يضرب الكعب الحر الكعب الثابت ثم يفترق عنه . في لفة ذراعه الأيمن رزمة من الكتب مختلفة الأحجام لا بد من ضغطها على ضلوعه ونحو ابطنه لئلا تنفرط وتسقط ، وذراعه الأيسر ملتف كالحلقة الناقصة حول العمود الحديدى الواصل بين سقف العربة وأرضها ، يمسكه به عضة من ثنية كوعه عليه . هذا وضع أشد اراحة له مما لو قبض عليه بيده اليسرى فتلسعها حرارته ويذب فيها الخور بعد قليل (اسألنى فقد تشعبت مثله وفي موقعه مرارا) .

في بعض المنعطقات المأخوذة خطفا كانت رزمة الكتب تدور مع جسمه وتصدم وجه جدار العربة الأمامى القصى فيميل ويزيد - وهو يتسم من ضغطهما على هذا الجدار حتى يملك

توازنه الى أن ينقضى المنعطف ويستقيم الشريط • بينى وبينه
أقل من نصف متر • العينان هما هما رغم الذبول صافيتان
يتفرق فيهما الحياء تريدان الضحك ، ومنك أن تشاركهما
الضحك ، التأمل ، الفم المطبق على لسان غير ثرثار (اتنى
لا أذكر شيئا عن صوته) • العزم على المضي رغم الصعاب ، على
النجاح بأي ثمن • لا دلع ولا مدرس خصوصى •

وجئنا الى كوبرى الزمالك • هان المشوار ، وزمر
الكومسارى (ولا يدري أحد أين هو ، ولا يدري هو حال
النازلين والصاعدين) ، واثنتى الترام الى اليمين ليعبر الكوبرى
منعظا ، اذ أخذه خطفا • تمايلنا ضد حركته وصدم بعضنا
بعضا بالأكتاف ونحن نسخط ونبتسم معا •

في لحظة مرت كالبرق رأيت رزمة الكتب تدور يسارا مع
قدمه الطليقة لتصدم وجه جدار المقطورة • أصبح جسمه كله
معلقا في الفراغ بين العربتين • دار حول كعبه الثابت • تراخت
عضة كوعه على العمود من عضة الجذب الى اليسار • انقلب
العمود من الجزء الناقص من حلقة ذراعه الأيسر • شدته قله
كعبه الثابت وأزاحه عن موضعه • لا أنسى منظر اصبعه البنصر
في يده اليسرى ، يحاول أن يستدير ليقبض على العمود •
العمود أضخم من حلقاته • كدت أسمع حكة هذا الاصبع ا
بالحديد • لاشك أن جلده قد تسلخ •

وهوى وغاب عن عيني • تناثرت الكتب كرش الملح ، ثم
طب ، طب • قفزت المقطورة مرتين كأنها هرست ريشة وضعها
صبي معابث على الشريط ، مرة بالعجلة الأمامية ، ومرة بالعجلة
الخلفية •

فززان من المقاعد • صراخ • حاسب ، حاسب • فرمل ،
فرمل • كل من شاهد مصرعه تكهرب جسده وامتنع لونه •
أحسست أن شعر رأسي كاد يقف ، فالفروة سخنت فجأة
وألتنى • وتزلنا وجريتنا الى الوراء ربما عشرة أمتار ، فإذا هو
ملقى على ظهره فوق أسفلات يكاد يغلى • بترت ساقه (لا أذكر
أهى اليمنى أم اليسرى) بترتا تماما من فوق الفخذ وانفصلت ،
مطروحة بعيدة عنه ، لا يزال حذاؤها في القدم ، رباط الجذاء
غير منحل •

لم يخرج من أحد منا أن يفعل له شيئا • شلنا الارتباك
والذهول ، أو قل الخوف ، بل الذعر أيضا • وفجأة برز كامل
أفندي الأزوت من وسط الزحام • زابله انمحاؤه وربكته •
اتخذ هيئة قائد في معركة • كان أكثرنا ثباتا وأقلنا اضطرابا •
خلع جاكته وألقاها على كتف أحد الواقفين (لعله خشى عليها
من التلوث) وأخرج مناديله يحاول بها كتم العروق المتهرقة ،
يتفجر منها الدم الأحمر في نبضات ، ثم طلب منا بلهجة آمرة
صارمة ، لهجة السيد الى أتباعه ، أن نسعه بقميص ليعصب به

الساق فوق القطع • لازلت أذكر صوت تمزيقه للقماش رغم
الضجة ، وكنت قد اندفعت فوقه ، ربما بتدافع الواقفين ورائي •
فمي يكاد يلمس فمه • العينان هما صافيتان • الفم مطبق •
لم يصدر منه أنين ولا توجع ولا آهة أو تنهيدة • لم يجز
على أسنانه • شمل الوجه استسلام لا حذ له • لم يغب عن وعيه
ولكنه لم ينطق بكلمة • أترأه من شدة الهول لم يكن يشعر بأقل
ألم • نحن نصرخ من جرح صغير ••

لم أنس الى اليوم نظرتة وهي تدور علينا ، تنطق بالود
وكانها تقول لنا تعجبوا معي لما حدث • ومع أن نظرتي بقيت
مسمرة على وجهه الا أنها زادت بعد قليل لاهتمامات حقيرة
أخرى • منظر الدم المتجمد فوق الأسفلت الساخن وقد اغمق
لونه • ماسورة العظمة المغروزة وسط الجزء الباقي من الفخذ
وحافتها المشرشرة • منظر لحم الانسان من الداخل ولم أكن
رأيت من قبل ، الحذاء المبتور ورباطه غير المنحل •• منظر
كامل أفندي الأزوت ، متألّم وسعيد معا •

وقبل أن تأتي عربة الاسعاف تدق جرسها كان قد لفظ
آخر أنفاسه واكتسى وجهه بالقناع •

وسرت كعابي لنهاية كوبري بولاق لأخذ ترام الامام
الشافعي اذ كنت أسكن حينئذ في شارع محمد علي •

(« المساء » ، ١٩٦٤/٨/٣١ ، ص ٨)

الموت

حين يتقدم الليل ، تتصنعين الرقاد ، هادئة كالمصفور ،
ياوى متعبا الى عشه ، يضم رأسه الى جناحيه ، ويغمض عينيه ،
مستسلما لمشيئة الرحمن ، توهمين أهلك وأعزاءك أنك قد
أغفيت — وان كان رقادك على مضض — ليناموا هم بسلام •
أهب من سباتي مذعورا ، في بهمة الليل ، والسكون شامل ،
وكل ما في الغرفة أشباح غامضة ، فأتبين جسدك الرشيق
كالطيف الشفاف ، وأجدك قائمة ، قد انحنى رأسك يكاد يلمس
الفراش ، أنك تسجدين لله عسى أن يرحمك ويخفف عنك
العذاب ، تمدين في حذر الى كوب الماء يدا يكاد خاتم العرس
القريب يسقط من اصبعها النحيلة • • فاذا ما تلاقى نظرتنا ،
تبسمت وعدت الى رقادك ، تظنين أنني لم أسمع أنك المكتومة •

كنت — لأنك في ميعة الصبا ، ورفاهية من العيش توجمين
من لمع بعوضة ، فتحملت مبضع الجراح يمزق لحمك بغير
مخدر • وكنت تتأذين من أهون الدواء ، فجرعت أشكالا

وألوانا من سموم تهد الجبال ، وأنت صابرة ، وكنت تجفلين من
منظر (الحقنة) وتحسين لها حسابا ، فعشت شهورا طويلة وهذه
الابرة الكريهة تلاحقك وتنغرز في عضلك كل ثلاث ساعات
مرة ، ليلا ونهارا . . بل لقد رأيتها ذات يوم تفوص في مقتلتك ،
وأنت لم تقنطى من رحمة الله . وجاء اليوم الذى اضطرب فيه
صدرك ، واختنق حلقك ، وتلاحق زحيرك ، وتلجج لسانك ،
فأخذت تسألينى بيدك عن الطبيب متى يأتى ؟ فلما همدت اليد
أيضا تشبثت بى عينك تقول : هذه نهاية حياتى ! وكان آخر
ما انبعث من حلقك بعد ذلك من أصوات هو أول كلامك وأنت
فى عالم الأرواح .

دب اليك الداء ، لا كالحية الرقطاء تغرز أنيابها فى حى
لتسلها عن ميت ، بل كأفعوان هائل قد انمقد فى حلقات متشابكة،
بعضها فوق بعض ، لمسك أول الأمر بذيله فأشلتك اللمسة
ونحن لا ندرى ، فلما اطمأن لعجز فريسته أخذ يتلوى ويتماوج
ليخلص رأسه متمهلا يسيل لعابه ، متذوقا من قبل لذته . اذا
رأى منك بادرة هروب لمسك من جديد بذيله لمسة رفيقة ،
ونحن لا ندرى . واقتضته أيام وأسابيع وشهور طويلة لينفث
رأسه فيقيمه ويصوب اليك عينين كالجمرتين . ما كان أطول
عذابك ! أتلوميننا اذا صرخت أناينتنا اليوم وقلنا : ليتها بقيت
مریضة مقعدة ، وظلت بيننا أبدا .

وطرق الباب طارق لم يسمعه أحد الا طفلتها الرضيعة فما هو
ضحكها ينقلب نحيبا لا ينقطع أربعة أيام • من القادم ؟ أيها الادراك
المكنون في جسم رضيع : انطق ولو أهلكك البوح ! ماذا رأيت ؟
والطارق صابر بالباب ، فلما جاءه الاذن دخل علينا ، فانبعثت
منها رائحة صلصال مبتل • لم تره عيوننا ، ولكن ارواحنا
شعرت بقدم ضيف غريب : عليه بشاعة العدم ، وجمال الخلقة
الكاملة ، فيه اشراق الحكمة في ذاتها ، واغلام عبث جدواها ،
نحن أيها القادم لا نعرفك الا باسم واحد ! هو الرعب ! أحنينا
أمامه الرءوس ، ووقفنا بين يديه جهلة حائرين •• ودار بينهما
كلام أشرق له وجهها وطاب حديثها ، ورضيت نفسها •

وخرجنا من حيرة الموت الى حيرة أشد قسوة • حيرة
الحياة • كانت قد أرخت لنا قبضتها قليلا ، فسارعت وشدتها
بقوة وجبروت على أولاد لها ضعاف حائرين •• أكلنا ••
ونمنا •• وبعد أيام تسربت أولى الابتسامات الى بعض الشفاه
الحزينة ! •

(مجلة « الثقافة » ، العدد ٢٢٢ ، ١٩٤٥/٥/١٥ ، ص ١٥)

(٢)

من ذكريات الحجاز

يا جحا . . . ودنك منين ؟

الأزمة التي تمر بها الآن علاقتنا بالسعودية تعيد الى ذهني
ذكرى أول منصب لي في السلك الدبلوماسي والقنصلي .

في سنة ١٩٢٩ كان الدكتور حافظ عفيفي وزيرا للخارجية
في وزارة محمد محمود التي عطلت الدستور . رشحه لهذا
المنصب عمله السياسي المتصل وخبرته بالقضية المصرية منذ
تطوعه وهو شاب حديث التخرج من مدرسة الطب بالالتحاق
ببعثة الهلال الأحمر الى ليبيا لتكون بجانب المدافعين عنها في
وجه الغزو الايطالي سنة ١٩١٢ ، ومروره بعد ذلك بالأحزاب
السياسية . الى ان انتهى الى حزب الأحرار ، وأشرف على تحرير
صحيفة « السيامة » ، ثم شغله بعد ذلك لمنصب سفيرنا في
انجلترا ، حيث ألف كتابا عن تجاربه بها أسماء « الانجليز في
بلادهم » . يتهمه بعض خصومه بأنه امتعان فيه بأبحاث
مرؤوسيه في السفارة دون أن يذكر أسماءهم . . (الله أعلم) .

لعل اعجابه بنظام وزارة الخارجية الانجليزية التي عرفت ،
وهي لا تفتح أبوابها الا لأولاد الأعيان ، كيف لا تقبلهم الا بعد
امتحان عسير يشيب لهوله الولدان .. هو الذى أوحى اليه أن
يحدث خرقا عظيما فى أنظمة وزارة الخارجية المصرية
وتقاليدها .. فقد كانت هذه الوزارة مشهورة بأنها معقل
المحسوبة والوسايط ، وأن وظائفها قاصرة على أولاد الأعيان
التمسحين بالأعتاب الملكية - ولو كانوا من الهالفت -
يدخلونها بغير امتحان .

هذا ما حدث عند انشائها بعد « تصريح ١٨ فبراير » ،
وقسط كبير من المسئولية يقع على عاتق حسن نشأت . فلما جاء
عبد الخالق ثروت للحكم فصل بجرة قلم أكثر من نصف موظفى
السلك الدبلوماسى والقنصلى . لعلها أول حركة تطهير شاملة
عرفتها الدواوين عندنا فى تاريخنا الحديث .

بدل « ثروت » طقما ظنه صالحا بطقم حكم عليه بالفساد .
وقف عند هذا الحد وعجز عن أن يضع نظاما يكفل تحقيق المصلحة
العامة . لعله فطن فى نهاية الأمر الى أن لا عمل لهذه الوزارة
ما دام الاحتلال باقيا ، فهى اذن جهاز للزينة ، فلا خطر من جعلها
دمية براقه يلهو بها الملك الجالس على العرش . هو الذى يرسم
لها مقدار القصب المذهب الذى يتحلى به الزى الرسمى للسفير ،
وتراجعا بالفائض الى أن تبلغ زى الملحق الدبلوماسى الذى

لا يزيد فيه القصب المذهب على زيق صغير على طرفي الكمين ،
ومن حول الوسط والرقبة •

وكانت وزارة الخارجية تشترط أيضا أن يقدم طالب ودها
اقرارا بأن له ايرادا خاصا لا يقل عن عشرة جنيهات •

لم يستطع حافظ عفيفي أن يكسر شرط الايراد الخاص •
لعله كان مقتنعا بحكاية « المظهر اللائق » المطلوب لموظفي السلك
الدبلوماسي والقنصلي ، ولكنه تحايل على الهرب من ضغط
الوسائط بأن قرر عقد مسابقة تحسب بقدر من الضمانات - في
حدود الامكان - ولا يكون التعيين الا من نصيب الفائزين ،
حتى ولو لم يكونوا من اولاد الأعيان •

كانت أول مسابقة تقيسها وزارة الخارجية ، فجرى في
عروقها دم جديد • البذور الصالحة أينعت ، وتألقت أزهارها •
يكفى أن أضرب المثل بالأستاذ محمد عوض القونى ممثلنا
الدائم في الأمم المتحدة الآن ، فقد كان من هذه البذور الصالحة
التي كسبتها وزارة الخارجية بفضل هذه المسابقة •

أما أنا فقد جئت في ذيل الناجحين ، فلا عجب أن اختارت
لى الوزارة بلدا يعد في نظرها في ذيل بلاد العالم كله • أعنى
به جدة المثلثة الحركات - بفتح وكسر وضم - والله أعلم
بالنطق الصحيح •

وكما كان بعض العمدة والمشايخ يضحك على ذقن الحكومة بتقديم اقرارات بأنهم يملكون من الفدادين ما يتحقق به النصاب المطلوب لوظائفهم ، وتكون الأرض في حقيقة الأمر ملكا للأسرة كلها - حتى أقارب الأقارب . . كذلك ضحكت أنا على ذقن وزارة الخارجية وقدمت لها اقرارا مماثلا بأن لى ايرادا خاصا قدره عشرة جنيهات شهريا .

ولم يتأخر عنى جزاء هذا التحايل ، اذ اننى أدركت ، حين وصلت جدة فى مارس سنة ١٩٢٩ ، أن الحكومة هى التى ضحكت على . فقد زعمت لى أنها عينتنى أمينا للمحفوظات فى القنصلية المصرية بجدة ، فاذا بى أتبين منذ أول يوم أن ليس فى معلوم انحكومة السعودية شىء اسمه القنصلية المصرية بجدة ، اذ كانت العلاقات مقطوعة بين البلدين .

ليس لنا قنصل فى جدة ، بل نائب قنصل ، لا تعترف به السلطات الرسمية . وكانت مصر قد سحبت القنصل منذ زمن . أما الشيخ فوزان سابق - قنصل السعودية فى القاهرة - فقد بقى بها ، ربما لأن له خيولا تجرى فى السبق ، بدون أن تعترف به الحكومة المصرية أيضا .

كان نائب القنصل لا يدعى للحفلات الرسمية ، وشأنى شأنه طبعاً . وظن ذات يوم أن الجو بدأ يصفو حين تلقى دعوة لحضور احدى هذه الحفلات ، وكان مكتوبا على الظرف « فلان

الفلائي — بجدة » ، دون أن يضاف وراء اسمه لقب وظيفته الرسمية • قلنا لعله من باب السهو والنسيان ، - وذهب فاذا به — لشدة خجله — يجد مقعده لا بين زملائه رجال السلك القنصلي ، بل بين أعيان البلد المحترمين • جلس وشرب الحساء ، ثم قام وانصرف •

سمعنا أنهم قالوا : « لعل الأكل لم يعجبه ، أو لعله أصيب بمغص مفاجيء » •

كنا اذا كتبنا لوزارة الخارجية السعودية مذكرة تتلقى ردها من وزارة الخارجية المصرية ، تقول لنا : بالاشارة الى مذكرتكم لوزارة الخارجية السعودية قد وصلنا ردها عليكم عن طريق الشيخ فوزان سابق (لاحظ الحرمان من اللقب الرسمي) وهو يفيد بكيك وكيت •• يعنى ، يا جحا ودنك منين !

وكذلك كان الحال مع الشيخ فوزان سابق بالقاهرة • اذا كتب لوزارة الخارجية المصرية مذكرة تسلم ردها من وزارة الخارجية السعودية !

ولم تكتف الحكومة السعودية بتجاهل ممثل مصر لديها ، بل ألغت أيضا الامتيازات الجمركية التي كانت منوحة للتكية المصرية في مكة والمدينة •• أذكر أتى ضربت كفا بكف يوم دفعت مائة جنيه للسماح بدخول دمجانة من الكحول التقى مطلوب لطيب التكية الذى يعالج فقراء مكة بالمجان •

ولم يأت المحمل من مصر بالكسوة الشريفة خلال اقامتى
بجدة ، لا فى سنة ١٩٢٩ ، ولا فى سنة ١٩٣٠ ، ولكن « الصرة »
وحدها هى التى جاءت ، لأنها من أوقاف المسلمين الذين يتلون
فى كتابهم الكريم « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع
عند بيتك المحرم » فوزعنا الصرة بالتعاون مع السلطات التى
لم تتجاهلنا هذه المرة .

ولكن ينبغى لى أن أشهد أن هذه القطيعة كانت قاصرة
على العلاقات الرسمية ، وبقيت علاقة الناس فيما بيننا مشبعة
بالود والاعزاز — لا فرق بين رجال الحكومة وأفراد الشعب .

(« المساء » ، ١٢/٩/١٩٦٦ ، ص ٦)

حفلة موسيقية « كتيمة »

وصفت لك أول مقامي سنة ١٩٢٩ بجدة نعر الحجاز ، وبها
قبر أمنا حواء طواه عشرون مترا على الأقل . . لو كانت تلبس
لحربت بيت آدم ! كان العري نعمة . . تعال الآن لتشهد معي أول
حفلة موسيقية حضرتها بجدة . ولكن ينبغي أن أخبرك أولا أن
الحكم الوهابي الجديد حينئذ (وكل غربال جديد وله تعليقة)
كان يحرم الموسيقى تحريسا صارما . لا يسمح لفونوغراف
أو اسطوانة بدخول البلاد ، حتى (مزينة الفم) التي يلهو بها
الأطفال تصادر في الجمر ، فما بالك بألات الطبل والزمر .
مرت على سنتان لم يقع فيهما بصرى قط على آلة موسيقية
ولو معطلة في سوق الكاتنو ، ولم أسمع عزفا من أى نوع كان .
أما الغناء فقد نجا من التحريم إذا كان غير مصحوب بعزف ،
وغير مستورد ، أى لا بد من التزام الغناء الحجازي ، وهو أشبه
شيء بالحداء .

حضرت حفلة عرس ذات يوم . جلسنا في العراء أمام بيت

العريس (الدنيا حر ، درجة الحرارة ٤٥ ، ونسبة الرطوبة ٩٠٪
علو، الأقل) • على دكة قعد رجل معمم بشال أصفر مبرقش ،
ليس معه تخت ولا منيد حتى ولو بالزن كما كان العهد بسنيده
أم كلثوم في أول طلوعها بالقاهرة •• يا له من زن عائلي
محض !

انطلقت الدودة الوحيدة في الغناء ، أو قل الحداء ،
والجميع جالسون في صمت عميق ، كأنما حط على رؤوسهم الطير
(لا بد من هذه الاستعارة فنحن في بلاد العرب) وحين يحس
المنشد أنه أشبع سامعيه ، وأن صدورهم متلهفة على وقفه
تتيح لهم التعبير عن طربهم (لعله يحس هو أيضا أنه في حاجة
الى محطة يستريح عندها ويسترد أنفاسه ويجفف عرقه) تخير
مقطعا يقف عنده ينهيه بنعمة أعلى مقاما وأطول مدا • حينئذ
يدرك الجميع أن الاذن قد جاء منه اليهم بأن يعبروا عن طربهم ،
لا قبل ولا بعد • وقبل أن تنتهي نعمة المنشد تلتحم بها على
الطبقة العليا ذاتها نفثة مدوية كالهدير من مستمعيه تقول (الله)
في مد طويل ، ثم يعودون الى الصمت المطبق الى أن تأتي
المحطة التالية •

صدقني ، تمنيت أن نقبس هذا التقليد لبعضنا من
الصرخات الفجة التي تقاطع بها غناء أم كلثوم •
لم يرتفع صوت يقول (أعد) • حتى التصفيق بعد نهاية

الوصلة غير مألوف • قام اليه بعض المخبطين وربتوا على كنفه ،
وبعضهم لثم يده ، هذا كل ما فى الأمر • لم يطربنى غناؤه بقدر
ما أطربتني لهفة المستمعين حتى أننى شاركت فيها على خلاف
عادتى • كانت تنطق بأن حجرا ثقيلًا أزيح عن الصدور • ان
الشعوب تتلهف للجمال •

صديقى حسين شاب حجازى ابن أصل ضخم الجسم ،
لا عجب أن كان كبير القلب ، ولعل افراط جسده فى النمو جاء
على حساب نمو روحه فلا تزال به مسحة من سذاجة الأطفال •
أقبل على متهللا يبشرنى أنه أفلح هذا الصباح فى تهريب
اسطوانة مهمة جدا لعبد الوهاب ، هى قصيدة شوقى (يا جارة
الوادى) • لم تمتلىء الجزيرة العريضة كلها فى ذلك الوقت
كامتلائها) ب (يا جارة الوادى) • سارت بها النار فى الهشيم
(عدنا للاستعارة) ودعانى بالحاح أن أسعها عنده مع رفقة
من أصدقائه •

كانت الوسيلة المفضلة فى تهريب الاسطوانات هى وضعها
بين (ثوبين) فى طرد « المانيقاتورة » ، والنتيجة أن جميع
اسطوانات الحجاز كانت فى ذلك الوقت مقرطبة ، طارت منها
شطقة • لم يتمتع أحد قط بالاستماع الى أغنية من مطلعها •

الغرفة داخلية لا تطل على الشارع • هذا شرط مهم ،
مزدحمة بشبان متساندين بعضهم الى بعض ، كلهم بلحية

قصيرة مديية • الجو حار ، مختنق بالدخان ، ومع ذلك فالنوافذ
محكمة العلق •

وفي الغرفة كنية عريقة (وهذا شرط مهم ثان) • وضع
حسين الفونوغراف اليدوى تحت الكنية ، وجاء بفوطة كبيرة
سد بها الفجوة التى يخرج منها الصوت ، ثم رقد على الأرض ،
ونجا بالاسطوانة المشطوفة ، ثم غرز فى يد الفونوغراف ابرة
رفيعة جدا - صنف يختص به الحجاز وحده دون سائر
البلاد !

وظهرت على وجه حسين علامات هم شديد وهم يحكم
وضع الابرة على الاسطوانة المشطوفة الدائرة •• لقد قصفت
منها كلمات « يا جارة الوادى طربت » •• فيتوقف على حسن
احكامه ان تبدأ الاسطوانة بـ « نى ما يشبه الأحلام »
أو « •• دنى ما يشبه الأحلام » • هذا ما يمكن استخلاصه
من كلمة « وعادنى » • حسين لا يريد أن يفلت منه حرف الدال
بأى حال من الأحوال ، فهو يجرب مرة وأخرى حتى يصل اليه
دون أن تصادف الابرة الطرف المشطوف •

هكذا استمعنا الى « يا جارة الوادى » • صوت عبد الوهات
كأنه صوت الشيخ على الذى تزعم احمدى نساء القاهرة أنه
يكلم زبائنهما من تحت الأرض •• وهى التى تكلمهم من بطنها •
انتهت الاسطوانة ، وصمم جارى أن يديرها بنفسه مرة

أخرى ، هو شاب سوري يستوطن الحجاز ، يلبس جلابية
سكروته ، فوقها صديري سكروته ، فوقه جاكته سكروته ،
ورأسه معمم بشال أصفر مبرقش كشال عبد الوهاب الحجاز .
هو يجيد عزف العود ، وعوده مكسور وأصبح ترابا ، ويجيد
العزف على البيانو ، وهو مفكك موضوع في مخزن البضائع
في متجر أبيه . يود أن يشرب ، ولوضبط شاربا لحبس ستة
أشهر ، وكل شهر ستين جلدة على قارعة الطريق وعلى مرأى من
الناس جميعا . وهو فوق ذلك يجيد الغناء ، ولكن لا يستطيع
أن يغنى في غرفة مقفولة ، بدون عود ، بدون ويسكي ، بدون
حرية . .

أصر على أن يدير الفونوغراف بنفسه طوال الحفلة
الكثيبي ، يكاد يلتهمه ويأكله أكلا . وبين كل اسطوانة وأخرى
تنهيدة عميقة ، يتمتم بعدها بصوت حلو (بالليل) أو (آه أنا
عشقت) أو مطلع دور عراقي ، ثم يسكت كأنما غاب عن
الوجود . ثم يستفيق ويعود الى الفونوغراف .

لم يكن مدعوا لهذا الاجتماع ، ولكنه سمع أصواتنا
فدخل على حياء الى البيت ، وهمس لي دون أن يسمعه بقية
جيرانه انه تردد على السلم ، هل يطلع أم ينزل ، نزاع بين أدبه
وطربه . اتصر الطرب على الأدب ، فدخل علينا ، ولكن الجميع
يعرفونه ، فقابلوه بفرح شديد .

هو ابن تاجر « مائيفاتورة » . أصبحت بعد ذلك لا أمر على دكانه الا وقت عنده ، وسلمت عليه . أراقبه جالسا القرفصاء يبيع لهذه وذاك ، في سوق قذر مقرف ، هواؤه مليء بالذباب يضيق به أوسع الصدور وأشدّها حلما وبجحة . ومع ذلك فهو مبتسم ، ثم يميل على ويغنى لى هنسا مطلم لحن ، أو يفتح دولابا صغيرا ويخرج منه ورقة بها نص دور جديد يحفظه على مهل .

أين أنت الآن أيها الفتى . . أتحت الثرى أم فوقه ؟ . . أتمنى أن يكون عمرك قد طال كعمري ، وأن أعود فأقابلك يوما لأرى هل الشيخ لا يزال يتمايل من الطرب ويتمتم بمطالم الأغاني كما عهدته فتى يجلس بجوارى في الحجرة الحبيسة في الحفلة الكتيمة . أتمنى أن تقع عينك على ما أكتبه الآن لتعلم أن صورتك بقيت في ذهني رغم مرور أربعين سنة .

وختام هذا المقال أن أصف لك الحفلة الغنائية الثانية والأخيرة الباقية عندي من سجل الحجاز ، لتعرف كيف يتحايل الطرب على كسر القيود وهدم السدود .

نحن في المدينة المنورة ، في بيت رجل ثرى . في البهو الفسيح فسقية مرمرية تلتف الجوهى في قاع منور عال يستدرج تيارا من الهواء من أعلى العلالى (أتمنى أن أعيش في بيت مثله في القاهرة) . وحول الفسقية اصطففنا مع الغروب على الشلت

حول براد شاي ، للشرب منه مراسيم طويلة ، تغطية الأبريق
بفوطه ، صب مقدار ضئيل في كوب صغير لنذوقه فنعلم هل
نضج أم لم ينضج • الصبر عليه قليلا ، صبه من علو حتى
تشارك الأذن مع الأنف واللسان في لذته • كيف تمسك بالكوب
الصغير بين اصبعين ، كيف تأخذ منه أول شفقة • • كلها محددة
في كتاب شفوي مقدس •

وسبب اللمة هو الاستماع الى مطرب ، هو هذه المرة
رجل بدين يرخي ضفائر له طويلة ، لولا العقال الذهبي احسبته
زوجته لا هو •

أغناء في مدينة أطهر القبور ؟ ! ولكن مهلا مهلا ، اتنا لن
نستمع الا لتواشيح دينية ، وقصائد في مدح الرسول ،
فلا اثم علينا • ولكني لاحظت بدهشة شيئا لم أعرف سببه في
مبدأ الأمر • المستمعون يزحلقون المنشد بسرعة لينتقل من دور
الى آخر ، ليحيى الوقت الذي يستطيعون فيه بلا خجل أن
يرجوه غناء قصيدة « أنا على دينك » •

زالت دهشتي حين تبينت أن أغنية « أنا على دينك » هي
نسخة طبق الأصل لحننا ونصا ولهجة عامية مصرية لأغنية

أم كلثوم التي كانت شائعة في ذلك الوقت ومطلعها « أنا على
كيفك » .. حينئذ اهتز جميع الحاضرين من شدة الطرب ،
وظفح البشر على الوجوه •

انظر كم كانت بارعة وساذجة معا حيلتهم في كسر القيود
وهدم السدود لينفذ الطرب إلى قلوبهم ولو من أضيقة ثغرة •

(« النساء » ، ١٩٦٦/٩/١٩ ، ص ٦)

من جرایر الموسيقى

بعد أن وصفت لك في المقال السابق الحفلة الموسيقية الكتيبي فعلت مبلغ كراهية المذهب الوهابي للموسيقى ، أتابع ذكرياتي عن الفترة التي عشتها في جدة (سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠) أمينا لمحفوظات قنصلية غير معترف بها (تقبى طلع عن شسونة) لأن العلاقات الدبلوماسية بين مصر ومملكة نجد والحجاز (لم تكن مودة الغناء اسم البلد التاريخي وتسميته باسم الملك - كأنها عزيمته - قد ظهرت بعد ، من قولة السعودية ، الهاشمية - المتوكلية - ماركة عربية مسجلة مع الأسف) قد قطعت قبل وصولي بأربع سنوات تقريبا .

لم يكن هذا القطع لخلاف في السياسة ، أو لتضارب في المصالح ، وكتاهما في منطقة النفوذ البريطاني - بل لسبب لا يخطر بالبال . أتعرف ما هو ؟ انه هذه الفرقة العسكرية الموسيقية (نحاسية ونواقيير) التي كانت تطلع من مصر مع المحمل ، لتزفه في الطريق ، ذهابا وإيابا .

أنت لا تدري كم كانت فرحتنا أيام الطفولة بهذه الفرقة
الخيالى ، يوم أن نصطف (واليوم عطلة رسمية) على السلم
الرخامى لسبيل ام عباس فى الصليبة لنشاهد نزول المحمل من
القلعة ، حيث كانت تنسج على تؤدة خلال العام كسوة الكعبة
الشريفة ومقام سيدنا ابراهيم الخليل ، مطرزة بخيوط الذهب ،
موشاة بأجمل خط . لا يبدأ العيال نسيجها الا بعد الوضوء
وقراءة الفاتحة . الكسوة القديمة تباع فى مكة بالسنتيمتر ،
بأغلى الأثمان . وكان فى حيننا أسرة عندها قطعة منها ، تتوارثها
جيلا بعد جيل ، يشحذها أهل الميت من الجيران لوضعها على
الخشبة من قبيل التبرك .

قلوبنا متعلقة بأربع متع ، عيوننا متفتحة لتلتهما ، تكاد
تبظ . لو ضاعت منها فتفوتة لم تتم الفرحة . الأولى هى جمل
المحمل . انه جمل أبيض مهول ، يشف ويرف من شدة النظافة ،
وبره منفوش ، ضخم ولكنه رشيق . انه فى نظرنا لا يشى بل
يتبختر كالغزال ، وندرك أنه هو مدرك لهذا العز كله ، وأنه به
فخور . يقال لنا انه لا يأكل الا للوز ولا يشرب الا ماء الورد ،
وانه اذا وصل الكعبة ومقام الرسول عليه الصلاة والسلام
ركع وتمرغ على الأرض من شدة الوجد ، وترقرقت الدموع فى
عينيه . فاذا عاد بالسلامة أعفى من العمل مهما كان تافها ، وعاش
مرفها فى التبات والنبات .

والمتعة الثانية هي تكحيل العين برؤية بهاء هذه الكوكبة
من الجياد العربية الضامرة ، أغلبها أبيض كاللبن الحليب ،
فما أجمل اذن على هذا البياض لمعان عيونها السود الواسعة .
ان الحلاوة تقطر منها ، والكبرياء والطيبة معا . انها مثال مجسم
للنبل . فاذا كانت شقراء - أي ضاربة للحمرة - فما أجمل
غرتها البيضاء ، هي كالهلال ، وبقية من نوره قد لمست كعب
أحد الساقين من خلف . ليست هذه الزينة عن عفو ، بل عن
عمد .

لا حيوان يبهج القلب مثل الجواد الجميل الأصيل ، عشقه
العرب عشقا مدلها ، وكانت اللغة العربية وهي تتغافل الى
قلبي تحمل اليه أيضا حب الخيل . ولا أعرف لغة مثل الفصحى
اتبته لأوصاف الخيل ، وصاغت لكل وصف لفظا .

تمر أمامنا وهي تتوثب ، وتلوى رقابها ، وتهمم بخياشيمها
كأنما لها احتجاج . وكنت مع ذلك ، لا أخفى عليك - فالصراحة
محمودة - أستريدي وراء ظهري خشية أن تقع عليها ندعة من
رذاذها ، فقد قيل لى بكلام أكيد ان (القوبة) ، وهي جنس من
بثور جلدية صلبة تنبت من بذرة رذاذ الحمير . وكنت أقول
لنفسى سرا : وربما من الخيل أيضا .

مازات أذكر - صدقتى - كيف يلحظ قلبي وسط الفرح
هذا الفارق الواضح بين الجياد والفرسان . الجياد جميلة

كالعرائس المجلوة ، آثار العناية بها واضحة ، شبع وري
وتطهيم ، والشبع من أكل محترم . أما الفرسان فكالموسج
النابت من الأمية وطين الفلاحة وكروانة العدس وذل الفقر
والامتهان وضياع الواقعين من قعر القفة . يصدر منهم صهد
خشن وبواخ بعيد . تتلمظ على أكلة حلوة أو لقمة هنية . .
فلا نحس أننا تتجنى عليهم أو نهينهم ، ونحن تترنم سرا اذا
رأيناهم ، بأغنية كانت شائعة أيام طفولتى ، مطلعها : « ولبسوك
الزعطلون يا محمد » .

والمتعة الثالثة أن نرى - من بين سائر الفرقة العسكرية
الموسيقية الخيالى - ضارب الطبلتين الصغيرتين الموضوعتين أمامه
على صهوة الجواد ، لأنه هو وحده الذى لا يمسك بلجام .
فنعجب كيف يتاح له أن يركب ويقود ويدها طالعتان نازلتان
بالدق على الطبلتين . تؤكد لى ذاكرتى أن لجواده كسوة من
جلد النمر .

والمتعة الرابعة وهى تسام المتع أن نشنف آذاننا بسسماع
مارش المحمل ، وكنا نحفظ أيضا مطلع نصه ، وهو يقول :
« يا محملنا روح وتعال بالسلامة » .

وبعد كوكبة الفرسان تأتى فرقة من المشاة . الجنود
يسرون فى انتظام والبنادق على الأكتاف ، يتصنعون الجد وفقا
للأوامر ، الا أن العيون تنطق بالفرح . لا يحدث تبادل نظرات

ود في موكب عسكري بين الجنود والجمهور كما كان يحدث في موكب المحمل • ومع ذلك لم يكن جو المرح بفالح في منع قلبي من الاهتزاز وعيني من رقرقة الدمع ، وأنا أحس أن هذا الجيش هو منعة الوطن • لم يتمثل لي الوطن في صورة واضحة ملموسة الا عند رؤيتي لاستعراض عسكري ، ولا يتغير هذا الاحساس اذا كان الاستعراض العسكري لجيش وطني أو غير وطني ، لأن فكرة في ذهني أسمى من الفوارق بين الأمم •

وأصبح هذا الاحساس يغلبني فيما بعد حين بدأنا نعرف استعراض مواكب الشباب (من فتیان وفتيات) في الحفلات الرياضية • هنا يضاف الى الوطن تطلع الأمل والمستقبل • الأساس واحد ، انه الاهتزاز للشعور بمنعة الوطن • والغريب أن الدموع كانت تظفر من عيني اذا شهدت استعراضا عسكريا من حماة بلدي حتى أيام كنت أهفو من كل قلبي أن يسود السلام بين جميع الأمم •• وقد حرمت من لذة هذا الهفوان منذ أن قامت اسرائيل • وتلك هي نكبتى •

هذه الفرقة العسكرية الموسيقية تصاحب المحمل لتزفنه طول الطريق الى أن يبلغ غايته في مكة والمدينة المنورة ثم يعود • ولست أريد أن أكثر عليك في تاريخ المحمل المصري منذ شجرة الدر • ستجدده مشروحا أوفى شرح في كتب كثيرة ، ولكنني لا بد لي أن أذكر لك أن طلوع المحمل كان دائما بمثابة حملة عسكرية لحماية الحجاج من خطر الاغتيال والنهب والسلب على طول

الطريق • كانت تروى لنا ونحن أطفال حكايات عن مخاطر
الطريق يشيب لها الشعر • لا عجب أن كان أمير الحج يختار دائما
بين كبار الضباط ، ليتم على السلاح والذخيرة قبل التحرك •
تجد في « الجبرتي » وصفا منفصلا للاستعدادات العسكرية
لخروج المحمل • وكلمة « عرضي » التي تصادفك في هذا
الوصف وكنت لا أفهم معناها قبل سفرى لاستانبول وتعلمى
لغة أهلها هي كلمة تركية معناها الجيش •

وبعد أن وصفت لك الحفلة الموسيقية الكتيمي ، وكيف
أن (مزينة الفم) التي يلهو بها الأطفال كانت تصدر في
الجمرك بعد أن استولى الوهايون على الحجاز •• تصور كيف
يكون الحال حين تشق جموع الحجاج من غلاة الوهايين فرقة
موسيقية بأكملها ، تلعلع وتنفخ في الأبواق وتدق على الطبول •
وكاد أن يقع صدام مسلح بينهم وبين حملة المحمل المصرى،
وخيف أن تنطلق النيران من الجانبين • ومرت لحظات رهبة
لا يعلم أحد ماذا كان سيحدث لو أن اصبعا هائجا ضغط على
زناد • وأرسل الملك ابنه سعود ففصل بين الجمعين •

فكانت هذه الحادثة هي السبب الظاهر في قطع العلاقات
الدبلوماسية بين البلدين ، أو قل بين الملكين •• وان كانت هناك
أسباب أخرى أتركها الى حين •• وكل هذا كما رأيت من
جراير الطبل والزمر •

(« النساء » ، ٢٦ / ١٩٦٦ / ١٩٦٦ ، ص ٦٦)

هذا الشبل من ذاك الأسد . .

الصحفى الانجليزى فيلبى (هذه هى مهنته فى الظاهر والله أعلم بالبوطن) غطس فى بيروت وقب فى موسكو . . أصبح معروفا فى العالم أجمع بأنه « الرجل الثالث » ، لا لأن الصدفة شاعت أن يكون السابقون الى الهرب لموسكو بوحى منه هما اثنان (الدبلوماسى الانجليزى ماكلين وزميله) فصدق وصف فيلبى بأنه « الرجل الثالث » ثالث ثلاثة ، بل لأن هذا التعبير أصبح يدل لا فى اللغة الانجليزية وحدها ، بل عند الناس جميعا على الرجل الداهية ، المحاط بالغموض (ولا أقول بالضباب كالنقاد المحدثين عندنا موديل سنة ١٩٦٣) الذى يجب العمل فى خفاء ، ومن وراء ستار ، والتفضل فى شيوع هذا التعبير يرجع الى القصصى الانجليزى البارع جراهام جرين (كلهم انجليز فى انجليز) لأنه هو الذى أطلق على بطل السيناريو الذى كتبه منذ سنين لفيلم « الرجل الثالث » ، وهو رجل أفاق كان يتجر سرا بالمخدرات فى أنقاض برلين بعد الحرب ، ولا يبالى من تكون ضحيته .

يا لقسوة السينما ، ويا لفرحة جراهام جرين وهو يرى
تعبيره يجرى على كل الألسن . ان الكاتب - لا عالم اللغة -
هو الذى يثرى كلام الناس ويلونه ، ويهبه ذوق العصر
ودلالته . حقا ان مثل هذا التعبير قد يبلى سريعا ، ويلقى في
سلة النسيان ، ويحل غيره محله ، ولكن قصر عمره لا يتفى طلاوته
وقوة نفوذه ولو الى حين ، شأنه في ذلك شأن الموضة ، أو شأن
أغنية خفيفة نسمعها فتؤخذ بها ونحبها ونراها جديدة كل الجدة ،
ثم تفتح العين ونغمضها فاذا هي قديسة قدم القبور المهجورة ،
مبتوتة الصلة بقلوبنا وأذواقنا . ونعجب كيف سحرتنا ذات
يوم ، ما هو الا الأمس القريب .

ولما علمت أن فيلبي الصحفى هو ابن سان جون فيلبي
أو الحاج عبد الله فيلبي قلت في سرى : هذا الشبل من ذاك
الأسد . (والعجب أن الابن هرب من بيروت ، وأن الأب مات
في أول أكتوبر سنة ١٩٦٠ في بيروت) . هل تكون بيروت هي
المدينة الثالثة ؟

وقد عرفت الأب (نجم الأسرة ولاريب) في ثغر جدة
سنة ١٩٢٩ حين نزلتها أعمل سكرتيرا لقنصليتنا هناك وأنا
في مقتبل الشباب . انه هو بعينه « الرجل الثالث » الذى رآه
جراهام جرين فى أحلامه . هو الغموض والعمل من وراء ستار ،
هو حب المغامرة ، والترحيب بالمناكفة . صفات أورثها لابنه

ولاريب • كلا الرجلين أحب الشرق ووهبه قلبه ، وحاك له
دسائسه •

كان الأب يتقن من لغات الشرق اللغات الهندستانية
والأردية والعربية ، لا العربية الفصحى فحسب ، بل لهجات
قبائلها • فباللهجة النجدية كان يتحدث الى المرحوم الملك
عبد العزيز آل سعود ، وقت أن كان نديمه وأمين سره ، مع
أنى حضرت يوم الحج سنة ١٩٢٩ مجلس الملك فلم أفهم
عنه - أنا العربي المسلم - من قوله الا ثلثه ، وان قلت الثلث
فقد أكثرت ، مع أن أذنى كانت متعلقة بكل كلمة ينطق بها •

الأب والابن كلاهما خدم وزارة الخارجية جهرا ، ثم فضل
أن يخدمها سرا تحت قناع آخر • الظاهر أن حب الجاسوسية
يجرى في دم الاثنين كليهما ، والطينة واحدة •• رضى في سبيل
تحقيق مآربه أن يهجر زوجته •

كان لفيلبى الأب رأس كالزلطلة لو خبطته في جدار
لما أصيب بخدش وانهدم الجدار • لا عجب أن كان داخل هذا
الرأس ذاكرة كالحديد وعقل جبار لا يكل ولا يمل • وكان له
وجه محمر مقشور ما أظنه عرف الكسوف في يوم ، ونظرة تنفذ
من الحديد ، ما أظنها انكسرت في حياء مرة • وكانت له لحيحة
كثة بلون الحناء - لا تتس أنه من محاسيب المذهب الوهابى -
وما كان بحاجة الى أن يصبغها بلون أزرق ، اذ كنت

لا أراه - ولا أدري لماذا - إلا في صورة الرجل ذى اللحية
الزرقاء . ولما زرته في بيته تأكد احساسى كما سترى فيما بعد .

من الانجليز من هو غاية البرود دون أن يتصف بثقل الدم،
ومنهم الأنيس اللطيف المعشر . أما فيلبى الأب فكان متجهم
الوجه ، وعر الجانب ، لو مسحت يد السماحة على وجهه
لعلقت بها جهامته . لم أره يتسم إلا قليلا . ولا أدري لماذا
أيضا أحسست أنه يعيش في عزلة دائمة ، وأنه ليس له
صديق . ولعل من شروط نجاح الجاسوس ألا يكون له
صديق بحق وحقيق .

جدة في الصيف جهنم وذباب ، ورطوبة وبعوض . هي
حمام تركى ، والهواء هو فوطة الحلاق الساخنة المبتلة التى
يضعها حول وجهك اذا كنت من زبائن صالون لوكس . طفح
حمو النيل على جلدى ، كل بثرة كراس الدبوس ، تتلذذ وتعذبني
بالهرش . غمام بصرى ، العرق لزج كالغراء ، يتصبب منك
وأنت ساكن في الظل لا تأتي بأقل حركة .

كنت لا أعرف أكتب إلا اذا وضعت تحت يدي ورقة
نشاف . خليج البحر الذى يمر أمام القنصلية مدلوق من زقاق
داخل درب في البحار ، ماء عكر راقد لزج ، ليس هناك حد
فاصل بينه وبين الهواء الذى يعلوه . الود ودى أن لا أنضو
ثيابي وحدها ، بل جلدى أيضا . الملابس النظيفة لا يفترق عن

الملبس القذر ، ولم يكن في مسكني « دش » ، بل كنت أستحم
بالكوز من صفيحة في طشت غسيل .

وكنا ننفذ إذا حل المساء من باب الكوشان في سور جدة
لننفذ الى الصحراء علنا نصطاد نسمة تائهة من الهواء ، ونمر
بقبر أمنا حواء ، وهو قبر طوله ٦٠ مترا على الأقل ، لا أدري
ماذا كان سيفعل سيدنا آدم إذا طلبت منه بدل ورق الشجر أن
يشترى لها قماشا . . لماذا كان لها دون سيدنا آدم قبر ؟
لم أجد عند أحد جوابا . الحقيقة أن المعرف في حجم القبر ضدني
كلما مررت به أن أقرأ الفاتحة سائلا المولى أن يغفر لها
ما فعلته بنا .

في البحث عن نسمة هواء كنا لا نتطلب من الحديث
الا أتفه وأخفه ، ومن الحركة الا أقلها . لو أعطى لي حينئذ
كتاب صغير مكتوب بخط كبير وقيل لي لو قرأته فستشرب علم
الدنيا والآخرة في جرعة واحدة لما وجدت في نفسي همة
لأفتح غلافه أو أرمي بنظرة الى عنوانه . الله الغني ، التنفس
- لا الأدب وحده - مطلوب قبل العلم .

ثم نعود في الساعة الواحدة أو الثانية صباحا - يا لضيعة
الوقت في فاشوش - قامر ، والفجر يقترب ، تحت بيت فيلبي
الأب فتسمر قدماي . النور مضاء ، تكتكة التايريتير في
سرعة القطار . انه يشتغل الى هذه الساعة المتأخرة من الليل

لم يخرج مثلنا لقتل الوقت ، لأن معدنه ليس معدتنا ، وهنته ليست كهمتنا . ان له هدفا يتلبسه ويلح عليه فينسى من أجله الحر الجهنمي والعرق اللزج وكل شكوى أخرى من شكاوانا السخيفة . هذا الهدف هو بناء صرح الامبراطورية ، ولا بأس من أن يقيم الى جانب هذا الصرح قصرا يسكنه فيلبي ذو اللحية الزرقاء ، وقصرا يسكنه فيلبي المستشرق ، وقصرا يسكنه فيلبي الرحالة جواب الصحراء الذي خبر فيها بنفسه كل كتيب وبئر ، وكل ذرة رمل وحجر ، كل حيوان يدب أو يمشى ، كل طيف من أطياف ألوانها البديعة ، الشروق والغروب ، كل دمدمة للجن فيها ، وكل دوى وصفير للريح . ولما زرته في بيته وجدت في حديقته داخل أقفاص أنواعا من حيوان الصحراء ، كالظبي والقنفذ والسحلية .. وهو داخل المدينة لا يستغنى عن الصحراء .

أعترف لك أنني كنت أقف تحت نافذته وقتا طويلا — جاسوس أمام جاسوس ! — أتطلع الى الضوء وصوت التاييرتر وأنا معجب بهمة أشد الأعجاب ، متحسر أشد التحسر ، لا على نفسي وحدها بل على كل أبناء المدارس أمثالي الفارقين في الجهل والكسل والتراخي والتواكل .. وخليها على الله .. وكنت أتخيل بدافع من اشتياقي أنه يؤلف كتابا عن الصحراء ولا يكتب تقريرا للمخابرات .

وقد اشتريت كتابه الذي ألفه من اجتيازه لصحراء الربع

الخالى ، وأعترف لك أنى عجزت عن قراءته لأنه محشو بالفاظ
عديدة من علم طبقات الأرض ، فيه وصف لتركيب كل حجر وكل
صخر مر به ، فيه وصف مستفيض للألوان وذوق أطياها الدقيقة .
وأنا - مع الأسف - خريج القسم الأدبى ومدرسة الحقوق ،
لم ألقن طوال السنين التى بقيتها فى المدارس كلمة واحدة تفتح
عينى على أسرار الأرض التى نعيش فوقها ، أو يبصرنى بالألوان
وفروقاتها . جميع الألفاظ التى استخدمها فىلبنى لا أستطيع أن
أترجمها الا بكلمة واحدة هى حجر أو صخر . وقلت الكتاب
وأنا أتحرر مرة أخرى على نفسى وعلى جميع أبناء المدارس
أمثالى .

نحن العرب المسلمين لا نعلم شيئا عن الجزيرة العربية ،
والذى نقرأه فى الشعر الجاهلى نقرأه وحيوتنا عمى ، ويجىء
رجل من بلاد الضباب ، لا لغتنا لغته ، ولا ديننا دينه ، فيجوب
هذه الجزيرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، لا يبالى بالأهوال
والأخطار ، ثم يسجل كل ما يراه ، وينشره للناس ، وهو عالم أن
الذين سيقراون كتابه من المتكلمين بالعربية قلة تعد على أصابع
اليدين ، والذين سيفهمون منهم ما يقرأون قلة تعد على أصابع
اليد الواحدة .

بسبب فىلبنى كانت جدة عندى حرا جهنما وذبابا ورطوبة
وبعضا . . وتحسرا لا ينقطع .

(« المساء » ، ١٢/٨/١٩٦٢ ، ص ٨)

مناكفات . . وصفائير

أتابع ذكرياتي عن سائت جون فيلبى أو الحاج عبد الله فيلبى الذى جدد ابنه الصحفى - الرجل الثالث - بهروبه أخيرا من بيروت الى موسكو تقاليد الأسرة فى الارتباط بالشرق العربى وحب المغامرة والمناكفة والعمل من وراء ستار .

وقد حدثتك من قبل عن لقائى بالأب فى جدة سنة ١٩٢٩ ، ووصفت لك هياته ولحيته الوهايية وبلعه بسهولة - وهو الغرب القادم من بلاد الزمهيرير - لجو جدة الحصار الرطب الذى يقف فى حلقنا - نحن أبناء زمته النيل - فيكاد يخنقنا . وكيف كان يحتمل وحدته بعيدا عن الزوج والولد كأنها خف الريشة وهى عندنا أطنان من حديد ، من أجل أن يفرغ دوتنا ، وهو فرح منطلق ، الى غرض كالسهم ، لدراسة بلادنا التى نجهلها فى الجزيرة العربية ، والالمام المام خير بأحوال أهلها ، خدمة للامبراطورية اليريطانية ، واعلاء من شأن الاستشراق فى أمتة .

كانت شهرته أنه مستشار أو صديق للملك المرحوم
عبد العزيز آل سعود ، ونو أننى لم أسمع خلال اقامتى سنتين
بالحجاز عن لقاء معلن بينه وبين الملك . ولا أظن أنه كان يقابله
سرا . والغالب أن شهر العسل بين الاثنين كان قد انقضى .
كان لفيلبى دوره وتفعه وقت أن كان عبد العزيز آل سعود فى
غياهب نجد ، يحتاج أن يكون بجانبه رجل انجليزى يستخدمه
فى اتصالاته — ذهابا وايابا — مع الحكومة الانجليزية ، فيدرك
الأمير بظننته من أين تهب الريح ، والى أى مدى يجوز له أن
يمد قدمه ، وان لم يفصح له فيلبى عن الحقيقة كلها .

ثم أصبح الأمير ملكا على نجد والحجاز ، وأطل عرشه
على البحر ، واستتب سلطانه ، فأصبح الاتصال بينه وبين انجلترا
عن طريق ممثل معتمد لانجلترا يقيم فى جدة ، وعن طريق الشيخ
حافظ وهبة مندوب الملك فى لندن . والشيخ حافظ وهبة من
أبناء مصر ، وقد نشر ترجمة حياته قريبا — ولا أنسى الى اليوم
لقاءنا أول مرة على ظهر الباخرة تالورى التى حملتنا نحن الاثنين
الى جدة فى مطلع سنة ١٩٢٩ .

فأصبح يصدق على فيلبى وصفه بأنه « محارب » من
المرتزقة ، وهذا الصنف من المحاربين ينظر اليه الجندى المحترف
بنوع من الاستخفاف والازدراء ، فكانت القنصلية الانجليزية
فى جدة تتجاهل فيلبى ، وكان فيلبى يتجاهلها ، بل يعمل أحيانا

على مناكفتها - كما ستري - كل هذا في الظاهر ، فلم يكن ينطلى على أحد زعم الجانبين أنهما في مباراة لشد الحبل ، كل منهما يجذبه لناحيته ، بل كنا نحس أن الجانبين رغم اختلافهما الظاهر يشدان الحبل معا الى ناحية واحدة هي لندن ، بل كنا نحس أن التجاهل المتبادل بينهما خطة ، ان لم تكن موضوعة عن عمد ، فهي وضع براجماتيقى نافع لا بأس من تدعيمه والابقاء عليه . ففيه تبيض لوجه فيلبي عند أهل البلاد ورفع لسوء الظن به ، فلعلهم يأمنون له ويفتحون له قلوبهم ويعتبرونه واحدا منهم لا واحدا عليهم .

انظر كيف كان فيلبي يناكف القنصلية الانجليزية .

تسلمنا في قنصليتنا ذات يوم نسخة من كتاب دورى موزع على جميع القنصليات تقترح فيه القنصلية الانجليزية علينا انشاء ناد يضمنا جميعا ويكون وقفا علينا . لعل قنصل انجلترا كان يفتقد ناديه في لندن ، يدخل فيجد منضدة عليها كوم من الصحف ، ومقعدا في ركن يدخن فوقه بيته . ان شاء جلس صامتا لا يضايقه أحد ، وان شاء قام الى من أحب ليبادل حديثا خفيفا ، أو ربما استهوته فكرة ربط موظفى القنصليات برباط الأسرة الواحدة ، تخفيفا من وحدتهم في جدة .

وأعترف لك بلا خجل أننا تلقينا هذا الكتاب الدورى بفرح شديد وتمنينا أن تتحقق الفكرة ، وحمدنا في سرنا للقنصل

الانجليزى انه لم يشأ أن يجعل هذا النادي وقفا على القنصليات الأوربية (فرنسا • ايطاليا • هولندا) وأنه تكرم وتنازل وشمل بعطفه قنصليتى تركيا ومصر • (لم يكن لبلد اسلامى آخر ممثل فى جدة ، اللهم الا ايران ، فقد كان لها قنصل فخرى من أهل البلاد ، من أذكى أهل البلاد • بفضلته عرفت لأول مرة شيئاً عن البهائية وتاريخها ومدى انتشارها) •

وكنا نحس فى ورود هذا المنشور أن السلك القنصلى ينقسم الى معسكرين : معسكر أوروبى ومعسكر شرقى • الأول يستعلى على الثانى وينظر اليه بشيء من الاستخفاف • وقد غضبنا فى سرنا ذات يوم حين دعانا قنصل هولندا لتناول الغداء على مائدته ، فوجدناه لم يدع معنا الا قنصل ايران الفخرى ، كأنه لم يجدنا أهلاً لأن نجلس على مائدته مع ضيوف من الأوربيين •

فرحنا بالكتاب الدورى ، ولم يبق لنا من هم الا أن نسأل : ترى كم تبلغ قيمة الاشتراك فى هذا النادي •

وبعد يوم واحد زارنا فيلبى وهو محقق هائج ، وقدم لنا صورة من كتاب دورى وزعه هو الآخر على جميع القنصليات ، يحذرنا فيه من جعل هذا النادي وقفا على السلك القنصلى وحده ، ويطالب بشدة أن يفتح أبوابه أيضاً لأهل البلاد ، لأهل الحجاز ونجد ، لأننا نقيم فى بلادهم ولا معنى لأن نغلق باب هذا النادي فى وجوههم • انه يكره هذا الاستعلاء البغيض •

سبحان الله ! لم يجيء الدفاع عن أهل البلاد من مثل مصر
أو تركيا أو إيران ، بل من سانت جو فيليبى ، أو الحاج
عبد الله فيليبى . هل غاظ فيليبى أنه لن يدخل هذا النادي
لأنه ليس موظفا بإحدى القنصليات فقال : فيها لاختمها ؟

لا أدرى .. على كل حال أعترف مرة بلا خجل أنني شعرت
بشيء من الحقارة والامتهان لنفسي لأتني خلقتنى الصغائر ،
فسارعت الى الفرح بفكرة هذه النادي دون أن أتبه - كما
أتبه فيليبى - الى المعنى الذى قذف به فى وجوهنا .
وهكذا حين أراد قنصل انجلترا أن يفتح علبة النادي قفز
له من داخلها غفريت اسمه فيليبى .. فأغلقها ورماها ، وقال :
توبة من دى التوبة .

ولم تقتصر مناكفة فيليبى على الحجاز ، بل امتدت الى مصر
حين عبر لأوروبا ذات مرة . طلب اليه فى السويس أن يدفع رسما
مستحقا لإدارة الكورتيينات ، فرفض الدفع ، وقال ان هذا
الرسم ضريبة تجبى فى مصر ، فأرونى أولا القانون المصرى
الذى فرضها .

والواقع لم يكن هناك قانون مصرى يفرض هذه
الضريبة - إذ كانت إدارة الكورتيينات منظمة دولية ، هى فى
مصر - كقناة السويس - حكومة داخل حكومة . وكان الغرض
منها فرض حصار على جماعة الحجاج الى مكة ، لا يقل عن
حصار المرضى بالطاعون والكوليرا .

وقد دفعتني مناكفة فيلبي للكورتينات على أن أدرس
أنظمتها وأضع عنها بحثا طويلا نشرته في مجلة « الرابطة الشرقية »
حملت فيه على نظام يسمح بمرور الأوربي المقيم في جدة دون
حجزه في الحجر الصحي ، أما اذا كان المسافر مسلما ، فسواء
أحج أم لم يحج ، وربما كان جارا ملاصقا لهذا الأوربي ،
فلا يسمح له بالعبور من قناة السويس الا بعد قضاء فترة من
الحجر الصحي في الطور . . كانت القاعدة عند الكورتينات أن
كل أوربي نظيف ، وكل مسلم قدر موبوء .

وكنت أرى بعيني وأنا صبي جماعة الحجاج القادمين من
الغرب المنكسرين والغلابة ، وهم يساقون كالأنعام ، وقد أحاط
بهم حرس من البوليس والكورتينات . كأنهم مباءة أمراض
فظيعة . . يحدث لهم هذا وهم في طريقهم الى الحجاز ، فتصور
حالهم عند العودة منه .

ونعود الى فيلبي فنقول : ومع هذا فقد كان هناك في
الحقيقة خلاف شديد بينه وبين القنصلية الانجليزية يتمثل فيه
خلاف عجيب متوارث في الدبلوماسية الانجليزية في الشرق بين
طاقم الحكومة الهندية ، وطاقم المكتب العربي في المخابرات
البريطانية - كما سأرويه لك في المقال التالي .

بين الروبية وريال تيريزة !

قابلت الروبية أول مرة وأنا صبي بالمدرسة الابتدائية وقت أن وفد على بلدنا في مطالع الحرب العالمية الأولى حشد من الجنود الهنود بين ملتج وحليق ، فوقر في نفسي أن عقلية الهنود من العقد الشائكة ، فلم أفهم حينئذ لماذا أرادوا للروبية أن لا تساوي الا ستة قروش ونصف قرش مصرى . ودعوت الله ألا يخطر على بال هذا الطاغية الذي يعلمنا الحساب — بالضرب ! — حتى لا يدخلها في مسائل « رجل باع واشترى » .

وقابلت ريال ماري تيريزة أول مرة وأنا فتى أعمل في قنصليتنا بجدة سنة ١٩٢٩ . حقا انه ريال متميز على وزن مبعجر ، ضخيم كأنه الرحي . هو النقد المفضل حينئذ لدى جميع سكان الجزيرة العربية ، وهو ليس عملة رسمية تفرد الحكومة بسكها وتعاقب على تقليدها ، بل هو عملة حرة . قيمتها هي قيمة الفضة التي تحتويها . فيستطيع كل صيرفي أن يسكها أينما شاء ثم يحملها للحجاز ونجد للتعامل بها . لا مثل

لها في أي بلد آخر • فلا يعرف ريال ماري تيريزة الفرق بين
جوانى وبرانى • (بعد استمساح الدكتور عثمان أمين !) •

وكما لخفتنى الروبية في الحساب لخفتنى هذا الريال ،
اذ كان ثمنه حينئذ ٢٣ قرشا مصريا • • سمي بذلك لأن على أحد
وجهيه صورة ماري تيريزة النمساوية امبراطورة ألمانيا وملكة
المجر وبوهيميا (١٧١٧ - ١٧٨٠) • ولم أعرف حتى اليوم
سر تداول هذه العملة في الجزيرة العربية وحدها بعد أن بطل
تداولها في النمسا ذاتها منذ أجيال بعيدة • وكان هذا الريال
العجيب كافيا للدلالة بمفرده على هبوط مستوى المعيشة عند
متداوليه ، فلو ملك واحد منهم ألف ريال لاحتاج الى
جميلين لحملها •

هذه المقدمة النقدية لا بد منها لأنها خير ما يعكس انقسام
السياسة البريطانية في الشرق حينئذ الى منطقتين : منطقة الروبية
(الهند والبلاد العربية الواقعة على الخليج • وقد يدخل فيها
العراق أيضا) ، ومنطقة ريال ماري تيريزة (بقية بلاد الصحارى
في الجزيرة العربية) ، فكان لكل منطقة رجالها المتخصصون •
لكل من الفريقين عقليته ومزاجه • فريق الروبية أوثق صلة
بالجيش • يهيم بالاستعراضات العسكرية • يتجمع حول نائب
ملك يحكم الهند كامبراطور منفوخ • يصف الراجات أمامه
وتحتة ، وقد زينوا بالجلى أيديهم وأرجلهم وآذانهم ، كأنهم

مسوخ في سيرك • رجال هذا الفريق عمليون ، حلولهم جذرية ، متصفة بالاستعلاء • لا أحلام لهم • همهم الأوحاد الاغتناء وجمع المال للعودة الى بلادهم بعد التقاعد ليعيشوا مع أمراضهم معيشة الأثرياء • الفروق بين الأجناس عندهم محددة بالحبر الأحمر ، لون العلم البريطاني ، والانجليزي سيد السمر والسود علنا ، والبيض أيضا في قرارة نفسه • الخيرة السياسية المطلوبة منهم هي التلاعب بالفروق بين المذاهب والأديان •

أما فريق ريال ماري تيريزة فأمره عجيب • شبان أذكيا يتخرجون في أرقى الجامعات ، اللغة اللاتينية والاعريقية حشو جمعتهم الثقافية • ولسبب خفي يهيمن بالشرق فيداعب أحلامهم • هو عندهم بلاد السحر ، فيترجمون كلمة السحر بكلمة السياسة ويتطوعون اخذمة الامبراطورية البريطانية في البلاد العربية • في أذهانهم أحلام عن دسائس ومغامرات ومغامرات كأنها قصة بوليسية • رحلات سرية عبر الصحراء على ظهور الجمال • أخطار بالليل • فيهم من يأفل نجمة أو تنتهي حياته بعد الخطوات الأولى ، فلا يبقى له ذكر • ومنهم من يبنى له في نظر قومه مجدا لا يقل عن أمجاد أبطال الأساطير ، كما حدث للورانس •

ليس بين فريق الروبية من يلبس زي الهنود • أما رجال فريق ريال ماري تيريزة فيهيمنون بلبس العقال • ربما أيضا اعتنق

بعضهم الاسلام ولو في الظاهر كما حدث لسانت جون فيلبي
أو الحاج عبد الله فيلبي ، ولو أنه في حقيقة الأمر من فريق
الروية رغم نشاطه في نجد والحجاز •

هذا الفريق لا يتظاهر بالاستعلاء ، بل يتصنع الوقوف
وقفة رجال الحاشية من الأمير العربي الذي يدخل في مصيدته •
رسائلهم المتبادلة بينهم مملوءة بمقتبسات من الأدب الاغريقي
واللاتيني ، مكتوبة برشاقة وأجمل أسلوب •

وأحب أن تعرف أن اللورد كرومر كان له أسلوب أدبي
ممتاز ، يمثل العصر الفيكتوري • تقرأه اليوم مثلاً في كتابه عن
عباس الثاني فتعجب بشدة أناقته ولكنك تحس أنه أسلوب
أكل عليه الدهر وشرب •

هذا هو فريق مخابرات المكتب العربي الذي بسط نفوذه
على البلاد العربية ، وبلغ ذروته ابان الحرب العالمية الأولى
وأعقابها • فريق لورنس ، وروناالدسفورز ، وكلايتون ، وشكسبير
(هكذا كان اسمه) • كان كل واحد منهم في حقيقة الأمر ملكاً
متوجاً ، ولكنهم بنوا عن عمد شهرة لورنس ، ليكون نجمهم
المتألق ، الذي يجسد ذكرى زعيمة هذا الفريق - اللادي
ستاهوب - التي كانت تعيش معيشة الملكات في جنوب ولاية
سوريا في أواخر الامبراطورية العثمانية •

وقد بلغ من مجد هذا الفريق في نظر الانجليز أن مستر
تشرشل نفسه كان يجب دائما أن يزج بنفسه بينهم .. ولم لا ؟
الله أيضا صاحب أسلوب زخرفي ، يعشق الأناقة •

ولم تكن الخبرة المطلوبة من هذا الفريق هي التلاعب
بالفروق بين الأديان والمذاهب كما هو الحال في فريق الروبية ،
بل كانت تتمثل في القدرة على إثارة الأطماع والحزازات بين أمراء
الجزيرة العربية • لذلك كان المطلوب منهم أن يدرسوا طبائع
الانسان ومكامن ضعفه ، ومن هنا كانت صلتهم الوثيقة بالأدب
والتعبير الفني •

ويخيل الى أحيانا أن النزعة المسيحية تكمن وراء هيامهم
بالشرق ، ففي الكتب التي قرأوها وهم صبية عن حياة السيد
المسيح والقديسين صور لرجال في زي البدو • وفي الجزيرة
العربية وند السيد المسيح ، وهاجر وجاهد ، ولقى ربه • • أسماء
مثل الناصرة وبيت لحم والجلجثة متغلغلة في قلوبهم ، توحى
لهم بشعور مختلط بالحب والرغبة والتعجب • فليس من الغريب
قولهم أن سر جاذبية الملك فيصل الأول كانت ترجع الى أنه
شديد الشبه بالسيد المسيح كما يبدو في لوحات المصورين •

ولكن اياك أن تنسى أن المجد الذي بناه هذا الفريق في نظر
شعبه لم يكن راجعا الى كفاءة فردية ممتازة فحسب ، بل لأن

وراءه هيبة الامبراطورية البريطانية و ثراءها وقوتها وأسطولها •
وكتبت صحيفة « المقطم » - صحيفة الاحتلال - توهم قراءها
أن وصف بريطانيا بالعظمى هو دلالة على عظمتها ، وأنها لا تقهر ،
مع أن هذا الوصف هو في الحقيقة وصف جغرافي يراد به تمييز
الجزر البريطانية من مقاطعة بريطانيا الفرنسية ، فالجزر
البريطانية أكبر ولذلك سميت بريطانيا الأكبر ، لا العظمى ،
فهذه هي الترجمة الصادقة لكلمة « جراند بريتاني » أو « جريت
بريتان » •

فلم يكن يخلو متاع واحد من فريق المكتب العربي
الانجليزي من صفائح بنزين مملوءة بالذهب أو بريال
ماري تيريزة ، ليوزعها يمينا وشمالا • حقا ان بعض الذهب كان
في بعض الأحيان مغشوشا ، فالسياسة البريطانية لا تتورع عن
التزييف ، بل عن القتل أحيانا • فالمستر بالمر الذي رشا بدو
صحراء سيناء ، تمهيدا لحرب عرابي لم يوزع عليهم الا جنيهات
زائفة ، وان كان لونها لون الذهب •

ان أردت أن تعرف مثلا للدور الذي لعبته الجنيهات
الانجليزية في بناء مجد هذا الفريق فاقرأ خطابات المرحوم الملك
حسين الى المستر ماكماهون •• ثلاث أو أربع صفحات مكتوبة
بأسلوب عرقوبي لا تفهم أوله من آخره ، ولكن كل رسالة تنتهي
بسطر واضح كل الوضوح ، التعبير فيه مباشر بلا لف
ولا دوران •• اسعفونا بالفلوس •• فالذي وصله لا يكفي •

وان قرأت وصف خروج الملك حسين من بلاده أمام الغزو الوهابي رأيت بقية هذه الفلوس لاتزال موضوعة في صفائح بنزين أخذت طريقها الى قبرص . دبر الانجليز خلعهم بالغزو الوهابي ، لطي صفحة وعودهم الكاذبة له باستقلال الجزيرة العربية تحت امارته . ولكن هل تظن أنهم أعطوا الحجاز لقمة سائغة للملك ابن سعود . كلا ، ان الملك علي وقع على ظهر السفينة التي أقلته هو أيضا خارج بلاده على معاهدة يتنازل فيها الحجاز لشرق الأردن عن ميناء العقبة . مثل هذه الخططات السياسية هي دعائم مجد فريق المكتب العربي الانجليزي .

لم يكن المسال وراء هذا الفريق فحسب ، بل كان هناك أيضا الأسطول البريطاني (قبل اختراع الطائرات والقاء القنابل الحارقة على القبائل الثائرة) ، وكان يحق لانجلترا حينئذ أن تسمى البحر الأبيض « بحرنا » ، وكثرت فيه بعض بوارجها الكبيرة . انه أصبح بحيرة انجليزية بعد احتلالها لجبل طارق ومالطة وقبرص وقناة السويس . أما البحر الأحمر الغلبان فهو في نظرها طست نحاس ، هو بحر عربي ، بدليل أن شكله شكل جلاية بكمين منشورين على جبل بعد غسلها « فمين » في هذا الطست النحاس . لذلك لم ترسل له الا بارجة صغيرة زعراء ، كأنها لعبة طفل تجر بحبل في هذا الطست . كان يكفي أن تظهر هذه البارجة أمام أي ثغر عربي حتى يتحقق لرجال المكتب العربي تنفيذ سياستهم بلا حاجة الى فرط ذكاء أو احكام

الدسائس • وأعتقد أن مدافع هذه البارجة لم تطلق مرة واحدة •
ولولا تعليمات البحرية البريطانية واشغال البحارة أوقات فراغهم
في تلميع الأحذية والمدافع لكان الصمد قد علا سلاحها
الأخرس •

من حسن حظي أن مشهد هذه البارجة لم يفتني ، فقد
رأيتها راسية أمام جدة ذات يوم أثناء اقامتي بها •• ويجزني
أنى نسيت اليوم اسمها •

وكان الانجليز يزعمون أن سياستهم في الشرق هي سياسة
يد من حديد داخل قفاز من حرير ، والواقع أن القفاز كان من
الحديد أيضا • هو أحيانا حديد خردة تصنع منه مثل هذه
البارجة الهزيلة •

كل هذا المجد طواه الزمن الى غير رجعة • انتهت الهالة
التي كانت تحيط برأس لورنس وأتباعه • ولكنها كانت لا تزال
تتألق وقت اقامتي بجدة سنة ١٩٢٩ • كان طاقم القنصلية
الانجليزية في جدة يأتهم بمدرسة لورنس ، منطقة ريال
ماري تيريزة • لذلك لم يكن من العجب أن ينظروا نظرة متعالية
الى سانت جون فيلبي ، أو الحاج عبد الله فيلبي ، لأنه في الأصل
من منطقة الروبية - كما سأحدثك في المقال التالي •

(« المساء » ، ١٩٦٢/٩/٢ ، ص ٨)

دروس وذكريات

من حسن حظى أثنى تلقيت وأنا لا أزال غشيمًا في الكار
من رجال القنصلية الانجليزية في جدة - وكلهم من خريجي
كامبردج أو أكسفورد - حين نزلتها سنة ١٩٢٩ • درسا تفنى
طوال مدة خدمتى المدينة بوزارة الخارجية • انه درس لا تجده
في الكتب • ولم ينبهنى اليه أحد من رؤسائى قبل سفرى من
مصر • ولكنه على ضآلته شديد النفع لأنه كسفك من نفختى
وغلوائى واعتزازى بالحصانة الدبلوماسية التى تمنح لرجال
السلك الدبلوماسى • المسافرون من بقية خلق الله تبعثر حقائبهم
في الجمارك ونحن نمرق مروق السهم بين التحيات والابتسامات •
أشياء كثيرة ممنوع استيرادها ، أو اذا سمح باستيرادها بيعت
بأثمان مرتفعة للأهالى (مثل السجائر والخمور والأقمشة
الفاخرة) أما نحن فنشتريها رغم كل القيود بأبخس الأثمان ،
بل من عجب أن شركات السيارات تمنح رجال السلك الدبلوماسى
تخفيضا لا يفوز به أحد غيرهم ، بل يبلغ الأمر أنه اذا دهست

هذه السيارة انسانا فان صاحبها لا يقدم للمحاكمة ، بل غاية ما يحدث له أن يعاد لبلده . بأمر من دولته ، وقد شهدت فيما بعد حكومات كثيرة تغمض عينيها على تعامل رجال السلك الدبلوماسي في السوق السوداء وهو جريمة يعاقب عليها قانونا . حقا انه اغراء شديد لضعفاء النفوس ، المنفوخين نفخة كذابة من رجال السلك الدبلوماسي ليروا أنفسهم فوق القانون وأن يباح لهم الاستخفاف به . . وكان من قوانين الحكومة السعودية حينئذ تحريم تدخين السجائر في الطريق العام ، وحق رجال « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » سوق السائرين غصبا الى المساجد اذا نودى للصلاة فكان أول أثر لهذين القانونين على نفسى أثنى ثرت عليهما . وتمسكت بحق التمتع بحصاتي الدبلوماسية ، ولكنى رأيت رجال القنصلية الانجليزية يحرصون على القاء سجائرهم الى الأرض قبل خروجهم من باب القنصلية ، ولو خرجوا بها ونفخوا الدخان في وجوه الناس لما تعرض لهم أحد ، ولكنهم لا يرضون المجاهرة بخرق القانون . ورأيت أغلبهم يطلقون اللحن اتباعا منهم لسنة أهل البلاد . ولكن خضوعهم لهذه السنة هو من قبيل الدلع أيضا لا الاحترام وحده . يحسون أن يضحكوا وهم يرون أنفسهم في المرآة ، وأن تثير صورهم الفوتوغرافية ابتسامات أقاربهم البعيدين . . وكان من مزاجهم اذا سأل أحدهم

سائل - كم لك في جدة ؟ أجاب - ثلاث لحي •• بدلا من قوله
ثلاث سنين مثلا •

تعلمت أن الحصانة الدبلوماسية لا تعنى الاستخفاف
بالقانون المحلى • بل تعنى أن يكون الممثل الدبلوماسى أشد
الناس حرصا على احترامه • فبقدر الحقوق تكون الواجبات •
أما مع سانت جون فيلبى أو الحاج عبد الله فيلبى فكنت
إذا قارنته برجال القنصلية الانجليزية - مع أنه مثلهم من خريجى
كمبردج - أجده مثلا غريبا للجرأة التى تبلغ حد البجاجة ،
ان نظرتة لا تنكسر •• ولسانه حاد قاطع • أقمنا حفلة لتوديع
رئيسنا وهو من خريجى أكسفورد • فإذا بفيلبى يقول له أمام
الجميع • ليس فيك علامة واحدة تدل على أنك درست فى جامعة
انجليزية ، كذلك كان شأنه فى بيته •• مخلوع العذار لا يخشى
النقد ، مجاهرا بما يخفيه غيره ، وكانت مهنته الظاهرة حينئذ
اشتغاله بالاستيراد • وقد زرت معه شركته وأطلعنى على الآلات
الميكانيكية التى تتركب على الآبار العميقة لجر مياهها ، وكانت
عبارة عن سلسلة متصلة إذا تحركت من أسفل الى أعلى فزححت
معها الماء من عمق البئر الى سطحه • وكنا نعلم أن الملك
عبد العزيز آل سعود يفكر فى تنفيذ مشروع يقضى باسكان
البدو فى مناطق قابلة للزراعة لينشئ فى الحجاز مجتمعا زراعيا
مستقرا يتحرر من الغزوات والهجمات المتبادلة بين قبائل البدو •

ولاشك أن الحاج عبد الله فيلبى كان من أكبر المروجين لهذا المشروع . . كانت المشكلة في الحجاز هي مشكلة الماء . نحن في جدة نشرب اما ماء لا طعم له . تقطره لنا الكنداسة ، وتباع الصفيحة الواحدة بقرشين وثلاثة ، واما ماء عكرا مستخرجا من الصهاريج الأرضية التي تحفر في طريق السيل المنحدر من الجبل الى البحر . وكانت ثروة بعض الأغنياء تقاس بعدد ما يملكون من هذه الصهاريج .

لم يكن عصر البترول قد أشرق بعد ، ومع ذلك فمن عجائب الحوادث في حياتي أتى شهدت مبادئ أول محاولة سرية للكشف عن البترول في المملكة السعودية ، ففي الباخرة تالوري التي أقلتني الى جدة في مطلع سنة ١٩٢٩ لقيت رجلا هولنديا ليس من اليسير على من يراه أول مرة أن ينسأ بعد ذلك ، له وجه شديد الاحمرار ، مستدير كأنه مرسوم بالبراجل ، وعلى عينيه نظارة غامقة هيبات أن تخفي خبث نظرتة . انه فاحش الثراء ، ويقيم في جدة . وقد أشهر اسلامه ، وتزوج من سيده فاضلة من أهل جدة ، فاذا به يأخذني على جنب ونحن لم نتعارف بعد معرفة وثيقة ويطلب مني سرا أن أضع جهازا له بين أمتعتي ليخرج من الجمرک السعودی بدون رقابة . وقال لي انه جهاز معد للكشف عن البترول . وان ادخاله للبلاد غير محرم ولكنه يخشى أن يعث به رجال الجمرک فيفسدوه . وقد وقعت فجأة في حيص بيص ، وحررت ماذا أفعل ، وكان خليقا بشاب

غر مثلى أن يستجيب لهذا الرحالة ، ولكنى لحسن الحظ أنفت
أن يستغلنى هذا الرجل مثل هذا الاستغلال السخيف ،
فرفضت طلبه •

وهكذا أستطيع أن أشهد أن الكشف عن البترول فى
السعودية بدأ سرا فى سنة ١٩٢٩ أو قبلها بقليل •

ونعود الآن الى الحاج عبد الله فيلبى لأختتم بسرد سيرته
حديثى عنه الذى طال أكثر مما ينبغى •

ولد فيلبى فى جزيرة سيلان سنة ١٨٨٥ أى بعد أن وصلها
عراى باشا بثلاث سنوات • وهكذا شاء له القدر أن يولد
فى مستعمرة يحكمها التاج البريطانى ، وينهى اليها كل من ثار
فند الامبراطورية • فرض مع لبن مرضعته حبه وهيامه بهذه
الامبراطورية وشاء له القدر أيضا أنه يكون دائما غريبا غير
متألف مع الانجليز المولودين فى انجلترا • • ولما بلغ الثامنة
من عمره سافر لانجلترا للالتحاق بالمدارس ثم تخرج فى جامعة
كمبردج • وبعد أن نجح فى امتحان دخول وظائف الحكومة عين
فى احدى الوظائف الادارية بمقاطعة كشمير بالهند فأتقن تعلم
اللغة الهندستانية والعريية • ولما اندلعت الحرب العالمية
الأولى ظل بالهند الى سنة ١٩١٧ حين أوفدته حكومته الى
الكويت ليكون حلقة الوصل بينها وبين الأمير عبد العزيز آل
سعود وهو يرقى سلم المجد خطوة خطوة • وهكذا نشأت بينهما

تلك الصداقة والعلاقة المتينة التي استمرت الى وفاة الأمير وهو ملك على نجد والحجاز والعسير أيضا . . الجواد الذي راهن عليه فيلبى هو الذى فاز أما الجواد الذى راهن عليه لورنس فقد خسر وخرج من الميدان . . ولكن نجم فيلبى مع ذلك لم يسطع سطوع نجم لورنس .

وورثه الملك سعود ضمن تركة آبيه الراحل ، فأبقىاه فى الحجاز ولكن أغراض السعوديين من فيلبى كانت قد انقضت بعد توطد العلاقة الرسمية بينهم وبين الحكومة الانجليزية .

ولسبب ما لم ينكشف سره بعد . صدر يوم ١٧ أبريل سنة ١٩٥٥ بلاغ من الديوان الملكى بمكة يعلن أن الحكومة السعودية طلبت من المستر فيلبى - لا من الحاج عبد الله فيلبى - من كبار رجال الأعمال مغادرة البلاد وأن جلالة الملك سعود تفضل بمنحه الأملاك التي كانت له فى البلاد . وقال البيان : ان المستر فيلبى أقام مدة طويلة فى المملكة السعودية كان خلالها موضع الرعاية والاعزاز ولكن الحكومة لاحظت فى السنوات الأخيرة أنه أخذ يتجه اتجاهات غير لائقة بالرغم من تحذيره عدة مرات ، فاضطر جلالة الملك أن يتخذ معه أسهل ما يمكن من الاجراءات ، لصداقته السابقة مع جلالتة ، واكتفى بأن يطلب مئة الخروج من البلاد دون أن يغمطه أى حق .

ثم يذهب فيلبى الى انجلترا . انه سيعيش غريبا بين أهله .

لذلك بقي في لبنان الى أن مات في أول أكتوبر سنة ١٩٦٠ بمدينة
بيروت •• بيروت التي غطس فيها ابنه الصحفي فيلبي سنة ١٩٦٣
ثم قب في موسكو •• وهكذا كان بيروت حلقة الوصل بين
سيرة الأب والابن •

ز « النساء » ، ١٩٦٣/٩/٩ ، ص ٨

يوم الحشر على الأرض

أكتب مذكراتي عن الحجاز (١٩٢٩ - ١٩٣٠) وأظن ألف وأدور على الأطراف النائية ، كأنتى أهرب وأنا خائف من الوصول الى قلب المعمة في هذا اليوم المهول ، ولكنى أعلم وفي دمي مس من القشعريرة التي تسبق الحمى العائدة أن وصفه لا يد آت ، فلا معنى ولا طعام لبقية الأيام دونه ، بل لا وجود للحجاز حينئذ لولاه ، يوم تختصر ساعة من ساعاته عمر ١٥ قرنا وأكثر وتأرجح وجدان أمة عريقة عالمية ، بأشواقها وأشجانها .

انه وعاء صغير في حساب الزمن ولكن سيل العواطف التي صبت فيه وحده طوفان يغرق الدنيا ويفيض : الدعاء والابتهالات ، الندم والتوبة ، بالتمتمة والجهر ، الدموع التي غسلت القلوب ، الوجد الذي قلقل أصحابه من كل فج عميق ، من أقصى الشمال والشرق الى أقصى الجنوب والغرب . . لافح لأنه يوم الوقوف بين يدي الخالق ، ندى لأنه يوم الأخوة بين البشر .

انتى فى حاجة لكى أصفه الى أن تتحفز أعصابى فى اتقاد
لا يقف الا على قيد شعرة من حد التمزق والهلاك .. أن تنفك
من أغلالها لتقوى على التحليق .. أن تتلبسنى كل شياطين
عبر .. أن تفضى الى اللغة بمكنونها الضنين .. أن تهبط
على مجنحة خفى الألفاظ والمعانى ، يسوقها الحب .. أن ترفرف
حولى وتوشوش لى بالسر فى أبهى صورة ، لا تترفق بى هذه
العاديات ، بل تفترسنى وتنهش قلبى ، ولكن هيهات ! اذن فكل
الذى يخرج من أحسن طوقى لن يكون الا كاللون الباهت ،
أو الصوت المحشرج الذى يكاد لا يبين .

انه يوم ٩ من ذى الحجة ، وقفة عرفات : ملايين من الخلق
تكفنوا وهم أحياء ، أرواحهم مشعشة ، وأبدانهم مشدودة
كالقوس . وجوههم وأذرعهم مرفوعة الى السماء ، ترجهم فرحة
اللقاء والعشم فى وجه الله ، فى صدق الوعد ، لا يمتلىء
الجو - لا قط ولا أبدا امتلاءه هذا اليوم بزئير آدمى
بطلب الرحمة .

انه يوم الحج ، بروفة من هذه الدنيا ليوم الحشر فى
الآخرة . فاذا انقض الجمع مع غروب الشمس بقيت على الوادى
أكداس هائلة من أدران الانسان وهلاهيل ضعفه ، ظنوا أنهم
قد تحللوا منها ، فاذا هى لاتزال عالقة بأكفانهم البيض ، يعودون
بها الى معترك الحياة ، تسبقهم فى الدخول اذا رجعوا الى
بيوتهم .. وكيف ينال الرحمة من لا يذنب .

الحمل خفيف على جدة أغلب العام • تتنفس براحة رغم الرطوبة الشديدة لأن الهواء كله لسكانها وحدهم ، كل وجه يعرف الآخر ، والسحنات متقاربة ، الذباب يملك سوق البلد ، يعينى رأيت الجزار يكشط بجهد أسرايه اللازقة باللحم بسكينه ليستطيع أن يقطعه للزبون • القنصلية مضعضة ناعسة ، لا تستيقظ الا يوم أن يطوف المنادى معلنا عن قرب قيام الباخرة « تالودي » أو « الطائف » ، فمن كان عنده نية سفر ، أو لديه جواب ، أو طرد فأهلا وسهلا به في مكتب بواخر اليوستة الخديوية ، لا بد أن ثبت وجودنا ففسر تلك الليلة في حشو مظروفين كبيرين ، كل محتوياتهما مع الأسف حسابات وجرد مخازن وطلب أجازات •

ليس في القنصلية من يركع أو يسجد ولو مرة بالنهار أو بالليل •• اننى لا أنام رغم الحر الشديد الا داخل ناموسية وأبلع ثلاثة أقراص من الكينين كل يوم ، اتقاء للملاريا ، البعوض يبرقش حجرتى ، اننى أعلم أن من بينه بعوضة الحمى الصفراء ، ولكن ميكروبها لم يدخل الحجاز لحسن الحظ والا لكانت الطامة التى لا سبيل لمقاومتها •

الطباخ الصومالى ، هذا الشاب الوسيم أبو رقبة طويلة ، المفتون بالثياب الزاهية الألوان ، آكل من صنع يده ثلاثة أيام ، ثم أنتظره ثلاثة أيام ، هكذا بالتوالى طوال عامين دون أن يحدث

أقل خلل في الانتظام ، لأنه يرقد كومة من اللحم ترتجف وترتجج في ركن الحجرة من حنى المساريا ، لو مسه تيار كهربائي لما كانت هزته أخف ، من لقائي به وأنا أحب الصومال وأهله حبا شديدا ، كان مثالا بديعا للأبياء والنخوة والاعتزاز بالنفس - داخل غلاف من البساطة والبقاء على الفطرة •

استمعت إليه بلذة كبيرة وهو يروي خروجه مع الجمال للمرعى فتغيب عن أهله موسم العشب كله ، وجهه وهو يتحدثني يتلألأ بلمسة الهواء الطلق واختضان الخلاء ، ولا غداء الا اللبن والتمر الجاف • كان في جدة متوحشا ، ولكنه مع ذلك مزهو كالديك حين يخرج مع المساء يتبختر في سوقها • يخب في ثياب زاهية الألوان ، وعلى رأسه لفة عمامة ملونة أيضا ، وقد وضع عصاه وراءه على كتفه ودلى من على طرفيها ذراعيه • هذه هي بهجته •

وكان لا بد أن يكون أول شيء أراه في الصباح حين أطل من النافذة • انه استيقظ مع الفجر قبلى وخرج ليكسب رزقه • الصباح رياح • انه رجل أصلع بدين يلبس مايوه بيكيني ، لم أره الا من بعيد • انه في قارب من حجم جذع شجرة محفور يدفعه بمذراة يغرز طرفها في قاع المياه الضحلة في لسان البحر الذي تطل عليه نافذتى ، ويغرز طرفها الآخر في الطين ، وكنت أعجب كيف لا تحترقه وتبرز من فوق كتفه ، حتى اذا وصل الى

حيث يريد ترك القارب وغاص في الماء وخرج يحمل بين ذراعيه
وفوق صدره كتلة كبيرة من الطين الأغبر اللزج ، يلتقى بها في
القارب فيهتز ، ثم يعود ويغوص ، فاذا امتلأ القارب عاد به الى
الشاطئ وكوم فوقه هرما صغيرا من الطين ثم تعود المدراة
فتنفرز في ابطه ليستأنف جنى محصوله .

يارب ايا مقسم الأرزاق . تمنح بعضها من خرم ابرة .
هذا الطين أفضل من الأسمنت عند أهل جدة . . ولم أدر كيف
كان يباع ، أبالوزن أم بالكيل .

اعتدت الطست لأستحم ، ليس في الدار مياه جارئة ،
والبانو ترف لا نطم به . ولكن لا بد من انتظار السقا ، امرأة
من التكارنة ، يأتون من غرب افريقيا ، فيقطعون القارة سيرا على
الأقدام ويعبرون البحر الى بر الحجاز ، فتخطفهم القبائل
وتسرقهم ، فاذا بالبحر القادم لبيت الله يصبح عبدا بظلم أهل
الأرض التي بها بيت الله . فاذا وصل الناجون الى جدة سكنوا
في أطرافها في بيوت من الصفيح ، ويستعينون على الحياة بتشغيل
النساء في حمل الماء الى البيوت دون أن يقبل الرجل - فما بالك
بالمرأة - امتهان كرامته بالخدمة في البيوت .

ها هي قد دخلت ، انداقت ضحكة عريضة على وجهها ،
فوق ظهرها طفل مربوط له رأس كالشمامة هاوية الى ظهره ،
وفوق رأسها صفيحة الماء ، قد غاضت فيها أظافرها الخمس .

لو دقت لما عشت • هذا الماء يأتينا من الكثافة التي تقطر
الماء العلو من ماء البحر • انه ماء خال من الأملاح ، لا يتملق
فمك ، وكانت زجاجة من مياه فيشى أوافيان تعد في نظرنا من
الفاكهة النادرة •

أما أهل البلد فيشربون من مياه الآبار التي يحفرونها في
طريق السيول و يقيمون على حوافها بنودا متدرجة في الارتفاع
حتى لا يقع في البحر الا زبد الماء دون قاعه المملوء بالحصي
والشوائب • انه ماء مبيض اللون ، تحاشيت أن أشربه وأنا
في ضيافة بعض أهل البلد رغم الحاحهم على •

أنت ترى أنني لا أزال ألفت وأدور على الأطراف النائية •

ورق • ورق • ورق •

كل غربال جديد وله تعليقة • حين بدأت عملي لأول مرة في القنصلية « أمينا لمحفوظاتها » - هكذا كان اسم وظيفتي حينئذ - لاحظت في الفترة الطويلة التي فيها « التسليم والتسلم » بيني وبين الزميل الذي حلت محله أن وجهه كان يصاب بغم وضيق وهستيريا إذا جاء البريد فوجد معه زكينة كبيرة حبلني في شهرها التاسع ، حشوها ورق له خشخشة كالأنين إذا لمستها يد •

كان ينادي « الحاجب » ويأمره بأن يلقيها فوراً في صندوق الزبالة ، فليس عندنا سلة مهملات تتسع لها ، ولا يليق بكرامة القنصلية أن تبيع محتوياتها روبايكيا علنا أمام الجيران •

ولما سافر وتربعت في مقعده وتسلمت أول زكينة قررت - لأتني غربال جديد - أن أفتحها ، فإذا بها مجموعة كاملة من كافة مطبوعات الحكومة • لم تبق وزارة إلا لها فيها نصيب • يا له من كنز ثمين •

هذه أولاً ثلاثة أعداد من « الوقائع المصرية » • • وكل عدد

لا يقل عن ٢٠٠ صفحة . انه لا يسجل فحسب كل أعمال الحكومة - في العاصمة والأقاليم - بل يكاد يعد لها أنفاسها . ففى صدره نص كل ما صدر من قانون أو مرسوم أو ديكرتو أو أمر ملكى ، ثم نص كل قرار أصدره محافظ أو مدير بإنشاء قرافة أو ابطال قرافة ، بتحديد مواقف جديدة لعربات الحنطور وحمير الأجرة ، ثم نص جميع الاعلانات القضائية التى يحار المحضر فى تسليمها لأصحابها لأنهم غائبون أو لأن عناوينهم مجهولة . ويلى ذلك بيان كامل لكل عقار سياع جبرا ولكل منقول محجوز عليه . من بعدها اعلانات عن قسائم التحصيل (مع ذكر أرقامها) التى ضاعت من الصرافين أو أمناء الخزنة . واذا كان الموسم موسم امتحانات فسنجد بالوقائع المصرية « نمر التلاميذ » فى جميع المواد مع ترتيبهم فى امتحانات الابتدائية والكفاءة والبكالوريا وجميع الشهادات العليا . اذا كان الموسم موسم برلمان فملحق بالعدد نص كامل لمحاضر جلساته وتقارير لجانه .

بذمتك ، هل يجوز التفريط فى هذا الكنز الثمين ؟ قررت الاحتفاظ به . ومددت يدي وأخرجت « المجلة الزراعية » التى تصدرها وزارة الزراعة . هالنى وأنا أتصفحها ثراء المعلومات المبدولة بالمجان وأحسست أثنى كنت أجهل كل شىء عن الطين والزرع . كان هذا شعورى أيضا كلما مددت يدي وأخرجت مجلة أو نشرة . المجلة البيطرية ، كألنى كنت أجهل كل شىء عن

الجاموس والبقر والكلاب • كيف لا أقرأ هذا البحث القيم
عن « الحيوان عند الفراغة » • لتتركه الى فرصة أخرى •

نشرة الأمراض المعدية في عموم القطر ، لا بد لي من قراءتها
لأطمئن على صحة أهل بلدي • نشرة مصلحة الجمارك عن
الصادرات والواردات ، وهي شهرية وموسمية ونصف موسمية
وسنوية ، كيف لا أقرأها لأطمئن على ازدهار تجارتنا • نشرة
المواليد والوفيات في الوجهين البحر والقبلي ، بيانات لذيدة
لم تكن تحمل حينئذ وجه بيع •• ألا أريد أن أعرف أى بلد
ضربت الرقم القياسى فى الواوأة وفى النواح • نشرة بيان عدد
السفن المسارة بقناة السويس وجنسية أعلامها ، شىء جميل ،
شىء جميل • فى قعر الزكبية « مجلة وزارة الشؤون الاجتماعية » ،
كيف لا أقرأها وسلامة موسى رئيس تحريرها ؟

رفضت بإباء وشمم أن ألقى هذا الكنز - أى هذه
الزكبية - فى صندوق الزبالة • قررت الاحتفاظ بها ، لأقرأها
على مهل ، بل كنت أتوقع أن يطلبها منى بعض أعضاء « الجالية
المصرية » لبحث عن شىء يهمه •

وساقنى هذا الحرص الى القاء نظرة الى سلة المهملات ،
وجدت بها الأعداد القديمة من « الأهرام » و« المصرى »
« الالستراسيون » الفرنسية - وكانت القنصلية مشتركة

فيها • وقررت أيضا أن استنقذها من الضياع وأحتفظ بها ، فقد
نحتاج الى الرجوع اليها • وكان لابد أن أقيد كل شيء في
« سجل المكتبة » برقم مسلسل ، يتم بمقتضاه جرد هذه المكتبة
كل سنة مرة مع ارسال محضر الجرد للوزارة •

بعد شهر واحد امتلأ الدولاب المخصص للمكتبة في غرفتي •
صرفت مبلغا كبيرا لاعداد رفوف داير مايدور ، امتلات في بحر
ثلاثة أشهر • زحفت على بقية حجرات القنصلية والدهاليز ،
وكدت أبلغ بير السلم • كعمت القنصلية مبالغ طائلة • ضاق بي
الموظفون ذرعا • ثقل دمي عليهم • انشغلت بالتستيف والترتيب ،
فلم تبق لي دقيقة واحدة لأقرأ ولو سطرا واحدا في هذا الكنز
الشمين •

لم يأتني أحد ليطلب « الوقائع المصرية » أو « المجلة
الزراعية » • كنت أول الأمر أحس بزهو شديد وأنا أتأمل
المكتبة في حالة النشوء والارتقاء ، ثم بدأ شيء من الوجع يدب
في قلبي • غلبني شعور قوى حساد يأتني لست أنا وحدي ،
بل العالم كله مهدد بجيش يطاردنا ، أو بحر عظيم يزحف ليغرقنا ،
بحر من الورق ، هذا هو طوفان العصر الحديث • دمدمة
هذا البحر هي من دققة ملايين الملايين من كاتبى « التبريتير » ،
وهمة ألاف مؤلفة من مطابع ضخمة ، تتكاثر كالقطر أمام

العين ، لها أشكال الحيوانات البدائية المتوحشة • في ذهني
صوت نهش وتمزيق بالأياب لمقول البشر وأرواحهم •

ومنذ حماقتي في أول قنصلية لم يفارقتي الاحساس بضغط
هذا الطوفان على صدري ، زاد وطأة ، على حين اشتركت
في بعض المؤتمرات ، وحين حضرت مرة دورة الأمم المتحدة •
لا أستطيع أن أصف أكذاس الورق التي كانت تنهال علي ، ولعل
الدافع لي على كتابة هذا المقال أنني سافرت أخيراً الى بيروت
لأحضر مؤتمر كتاب آسيا وإفريقيا بحقيبة تزن ١٠ كيلو ، وعدت
ووزنها ٣٥ كيلو • والفرق ثقي أنه ليس هدايا وأدوية ، بل
ورق •• ورق •• ورق •

لا أمل في « نوح » جديد ينقذنا • اذن لا بد من الاسراع
بإيجاد توازن بين قدرة الورق على الهجوم وقدرتنا على
الدفاع • هل هو العقل الإلكتروني ؟ هل لا بد من اختراع لغة
جديدة رمزية تعطل فيها الكلمة الواحدة محل سفر كامل ؟ أم العطل
أن تؤلف جمعيات فدائية تتولى تخليع أشجار العالم كله لتهدأ
صدورنا من اللهاث وينزاح عنها هذا الطوفان المخيف ؟

علمت بعد عودتي من بيروت أن حريقاً قد التهم محتويات

مخزن احدى شركات توزيع المطبوعات ، وكنت أمر به فأشيع
بوجهي عنه ، فلا شيء أثقل وزنا ودما من الكتاب المرجوع ،
الراقد كالمبت . انه كالقطار لاشيء أخف منه في جريه ، ولا أثقل
منه اذا تعطل ووقف . أوكد لك أنني خشيت أن يقبض على
بتهمة اضرار نية احداث الحريق في هذا المخزن . فالحق هذا
هو ما كنت أتمناه كلما مررت بهذا المخزن المخيف .

(« النساء » ، ١٠/٤/١٩٦٧ ، ص ٤)

(٣)

في درب الحياة

مذكرات فنان غشيم في الكار . . !

أتابع ذكرياتي عن أول لقاء لي بفن الأوبرا ، لا يدفعني على أن أروها هنا فأعرض لتهمة التحدث عن النفس الا أملى في أن تكون ذات نفع لك ، والنفع عندي يشمل الابتسام ، فلاشك أن الجيل الحاضر من حقه أن يلم بتجارب الجيل الماضي وما لقيه في طريقه من عثرات وأوهام حتى لا تكرر هذه العثرات وهذه الأوهام ، فلعل العظة ان جابت ألف مرة أن تصيب مرة . ولاشك أن من واجب الجيل السابق ألا يكتفم الشهادة ، فلا نجاة لكل جيل من ألم شعوره بأنه باق متصل الأثر ، لأنه يورث الجيل اللاحق أفضل ما عنده ، عصارة تجاربه ، عسى أن يحقق ما عجز هو عن تحقيقه .

ولا يهم الجيل الحاضر أن يعرف عن الجيل السابق كيف كان يأكل ويشرب وماذا كان يلبس ، بل لا يهمه أن يعرف ماذا كان يقرأ أو حتى ماذا خلف وماذا كتب ، بقدر ما يهمه أن يعرف النمو الروحي لهذا الجيل السابق أن تتكشف له الستار

ليرى من ورائه صراع النفوس مع المبادئ والمعتقدات ، التحول من الشك الى اليقين أو من اليقين الى الشك ، تلمس الطريق في الظلام عسى أن تؤدي سراديبه الملتوية الى مخرج يدل عليه من بعيد بصيص من نور ، يومض وينطفئ ، تخبط البحث عن مرفأ يعصم من الغرق • راكب الزورق الذى تتقاذفه الأمواج ، يقذف بحبل يربطه على وتد يمثل وحده الثبات فى عالم مقلقل •

ومن أسف أن هذا النوع من المكاشفة غير معروف عندنا ، ان أردنا أن نعرف أحدث مثل له ينبغى أن نقفز الى الوراء قفزة طويلة لنصل الى كتاب « المنقذ من الضلال » ، فانه ترجمة ذاتية روحية للامام الغزالى • لم يخجل من الاعتراف لنا فيه بتخبط ضلاله قبل أن يهتدى الى مذهب يؤمن به •

أما نحن فتتخرج اليوم من التحدث عن زيف لنا سابق ، حتى بعد أن تتوب الى الرشيد فنندم وتصدق توبتنا ، نخشى الاعتراف بالضلال الذى خضناه من قبل الوصول الى نور الهداية •

لم يخجل الكاتب اليونانى كازانزاكس — وأغلب الظن أن جائزة نوبل كانت ستمنح له لو امتد به العمر — أن يروى فى كتابه الفذ « رسالة الى الجريكو » قصة تخبط روحه فى البحث عن عقيدة •

وإذا كانت ذكرياتي التي أرويها هنا لا ترتفع الى هذه
القمة الأولمبية ، فانها - رغم تواضعها وقلة خطرهما - تتبع
من نفس الرغبة في أن يكشف الجيل السابق عن تجاربه لينتفع
بها الجيل الحاضر .

رويت لك في مقال سابق خط سيرى من القاهرة الى جدة
ثم الى استانبول . وقد تفضلت وزارة الخارجية فنقلتنى بعد
تركيا الى ايطاليا ، فكان هذا أول لقاء لى بالحضارة الغربية .
ومن حسن حظى ، أن هذا اللقاء الأول لم يتأخر فلا يلحقنى
الا وأنا شيخ متبلد الذهن ، عاجز عن التأثر والاستيعاب ، ففى
سنة ١٩٣٤ وصلت الى روما - عاصمة الريسانس ، ديار
ميخائيل أنجيلو ورفائيل ، موطن دانتى وجاليليو ، بلد
فراى وروسينى وبوتشيني ، حتى ماسكانى كان لا يزال على
قيد الحياة .

وكنت قبل وصولى الى روما قد قرأت عن الحضارة الغربية
وفنونها وآدابها حتى كدت أتلف مقلتى . دراسة كبار الرسامين
في صور اهم في الكتب لا فى المتاحف ، وكذلك ان فاتنى طول
الاستماع الى الكونسير الى الكونسيرتات والأوبرات - حتى
عن طريق الاسطوانات فانى كنت أوشك أن أعرف كل شىء
عن حياة كبار الملحنين فى تاريخ الموسيقى . أعرف أسماء أعمالهم
وظروف تأليفها . كنت خبيرا فى الرسم وأنا أعمى ، وخيرا فى
الموسيقى وأنا أصم .

كنت « ريدزدايجست » لمكتبة كبيرة ، لا أزيد أنا الآخر
عن أن أكون كتاباً - في حجم كتاب الجيب - مدفوناً في مخزن
مظلم لا يرى النور ، وفي بطنه علم كثير . وكان خيراً لى - وهذا
شئ لم أدركه الا فيما بعد - أن أقرأ نصف أو حتى ربع ما قرأت
ثم أذهب الى المتاحف وأستمع الى الموسيقى ضعف ذهابى
واستماعى .

وكان قد بقى في نفسى من هذه القراءة أثر الرحلة الى روما
على الشعراء الرومانسيين الانجليز ، بيرون وكيتس وشيللى ،
وكيف أن الهة الشمس جادت لهم بخير ما عندها على شاطئ
خليج نابولى ، بين اشراق النور وزرقة البحر وصفاء السماء .
ما أبعد بهجة هذه الألوان عن كآبة ألوان بلدهم انجلترا ،
تراب الفحم يهبط على مدن ضائعة في الضباب ، يجرى فيها
الناس كالأشباح الضالة ، وأجسادهم ترتجف من شدة
البرد .

وعرفت كذلك أثر الرحلة الى روما على جوته ، فقد كان
اجتيازه نجيل الألب من الشمال الى الجنوب حداً فاصلاً في
حياته بين الضباب والنور ، الغموض والوضوح ، بين الهجىة
والحضارة .

فكان يخيل لى قبل وصولى أنتى اذا حلت بروما سأسجد

على الأرض لأثمتها ، وأتمسح بأعمدة كنيسة بطرس وأرقد على
سلم الأوبرا •

ولكن عبثا بحثت عن هزة قلبي ، عن أثر لانبهاري ••
وجدت أن النور في جو روما ان لم يساو فهو لا يزيد عن النور
في جو بلدى الذى لا يعرف الضباب •

شتان في الرحلة الى روما بين رجل يجيئها من الشمال
ومعه تركة ثقيلة من مخلفات همجية ، قبائل الفاندال والفيونيون
والفايكنج ، وأحزابهم ، وبين رجل يجيئها من الجنوب ، هو من
أبناء الشرق ، في جمعته كنز ثمين من حضارة كانت لا تقل عن
حضارة أوروبا ، ومن ثقافة ان اختلفت عن ثقافتها فهي لا تقل
عنها شمولا ولا قدرة على التملك وعلى اثاره الاعجاب والولاء •

ومع ذلك لم أجهل أنى قادم من بلد متخلف ، سبقه الزمن
شوطا طويلا ، فكان من الواجب على أن أجرى لألحقه ، حتى اذا
ساوته استطعت أن انفصل وأشق طريقى مستقلا عنه ، واذا
أخذت منه فسأعلم أننى سأعطيه المقابل •

وبدأت أتعلم لأول مرة - بالاستماع والنظر - لا بالقراءة،
فأدخل المتاحف وأغشى الأوبرا وحفلات الكونسير ، مواظبا
كأننى تلميذ يطمع في جائزة « حسن السير والسلوك » •

ولا أكتفك أيضا أنني اندفعت في هذا التلمذ لأننى أقت أن
أجلس في المآدب الرسمية بجوار سيده جميلة مثقفة فتجدنى
لا أحسن الكلام الا فى الأكل والطبخ وآخر الأفلام ، فاذا
أدارت وجهها عنى والتفتت أغلب الوقت الى جارها فى الجانب
الآخر ، وكان انجليزيا أو فرنسيا أو ألمانيا ، دار الحديث عن
المعارض والكونسيرتات .. انى أقترح على وزارة الخارجية أن
تجعل النجاح فى الامتحان عن تاريخ الفنون الجميلة شرطا
أساسيا لدخول السلك الدبلوماسى والقنصلى .. سينتقل
مبعوثوها - بفضل هذا النجاح من مرتبة « موظف » الى
مرتبة « بنى آدم » .

رأيت كيف وصلت الى روما وأنا مثقف وغشيم فى الكار
معا ، وقد بدا اعتدادى بأننى موظف قد الدنيا فى غشوميتى فى
يحشى عن سكن . أبى لى السلك الدبلوماسى والقنصلى الا أن
أبحث عن شقة مفروشة فى عمارة حديثة مبنية بالأسمنت المسلح
على طراز « نوفى شنتو » (١٩٠٠) فى أحدث أحياء روما ، كان
من قبل أرضا خلوية فى أطراف المدينة ، مثل أرض مدينة
نصر فى القاهرة مثلا . وقيل لى فى وصف هذه الشقة انها لو كس
لا لشيء الا لأن بها حماما وتدفئة مركزية بأنايب المياه ،
ولأن الأثاث من طراز « نوفى شنتو » أيضا ، خطوط وزوايا
قائمة وأرجل كل منضلة مفرشحة مودرن جدا .

وتحملت في سبيل الأبهة ما لهذه العمارة الحديثة من
مقدرة فائقة على توصيل الصوت ، كنت أسكن في الدور الثالث
فاذا لعب طفل بالبلى على سطح العمارة - وهي من عشرة
أدوار - سمعت خبطة البلية في البلية ترن في أذني . وكنت
أعجب كيف يمكن أن تقال في هذه العمارة كلمة وتبقى
سرا .

ولم أدرك فقر ثقافتى واحساسى الفنى الا بعد أن خالطت
قرنائى الانجليز والألمان والأمريكان . وجدتهم جميعا يصدون
عن الأحياء الحديثة ولا يبحثون لهم عن سكن الا في الأحياء
التاريخية القديمة ، وسط الأزقة الضيقة ، والدخول الى الدار
من تحت بوابات عتيقة ، ليس في البيت مصعد لأنه من دورين
وعلو درجة السلم نصف متر ، ويبر السلم ظلام كالكحل ، واذا
دخلت الردهة لم تجد الا مدفئة مفتوحة ليشعل بها حطب فروع
الشجر الغليظة . وأمام المدفئة - عن يمين ويسار - كرسيان
عتيقان . هذا كل الأثاث . على رف المدفئة بعض خزف
الأوترسك . وعلى الجدار لوحة من القرن الخامس عشر (هكذا
يقال) . هذه هي روما التى يحبونها . روما مصدر ثقافتهم ،
فليس الا في مثل هذه الدور تتراح نفوسهم . أما الأحياء
الحديثة فيتركونها للغشم أمثالى .

صاحب هذه الشقة بارون أو مركيز ايطالى مفلس ، فى
اصبح يده خاتم ثمين موروث عن كاردينال ، والشقة والخاتم
واللقب حجارة ودع تفرش على الأرض بأمل اصطياد عروس
غنية من بلاد الدولار •

(« النساء » ، ١٩٦٤/٢/٢٤ ، ص ٨)

الزهرة والاصيص ..

كنت لا أعود الى الوطن أثناء عملي بالسلك الدبلوماسي
الا في اجازة قصيرة مرة كل سنتين أو ثلاث ، فكان أول شيء
أفعله بعد أن أتفض غبار السفر ، وقبل أن أزور اخوتي ، أن
أذهب الى بيتها في الحلية الجديدة ، أن أحج اليها ، لأجلس بين
يديها في الصالون المريح المكنون الذي لم يتبدل فيه شيء مدى
أربعين عاما . المقاعد هي هي في أماكنها هي هي . فترات الصمت
بيننا أطول من فترات الكلام ، وبارك لنا في هذا الصمت أن
زوجها لا يشارك في الحديث الا بإبتسامة تجمع بين أذنيه ،
تشق وجهه الوردي المستدير في رأسه المكور الفاحم الشعر .

لست بالغريب عن الدار حتى تفسد عليه زيارتي بحبته
في جلبابه السكروتة المهففة . هو ابن ذوات من حى سيدنا
الحسين وان كان يتقن الفرنسية كأحد أبنائها .. ثم أقدم لها
زجاجة العطر الذي تحبه فلا تشكرني بكلمة ، فلا يزال من
حق الست الستوتة أن تتقبل هدايا عيالها كأنها قربان ، ولكن

نظرتينا - وهما تبتسمان كتما - تتقابلان خطفا ، فاذا المخطوف هو عمري كله منذ طفولتي . من نظرتها يقطر الحنو والاعتزاز ، وأعلم أن نظرتي تتمم بالود والاعزاز . هي المعطية وأنا المتلقى . وتصمت على حين أن زوجها يقرب الزجاجة كأنها من العجائب التي لم يرها من قبل ولا تفوته مع ذلك كلمة أو إشارة رمزية في حديثنا المتقطع .

وعدت آخر مرة بعد غيبة طالت ست سنوات ، وذهبت إليها ثم خرجت - وزوجها يصحبنى عبر الحديقة الصغيرة حتى الباب - وأنا حزين منكسر القلب .

هذه الطفلة الشقراء - أم الضفيرتين ، النظيفة الملبس . . . جوب للركبة أبيض ناصع ، وحذاء قصير أسود لامع ، تجلها « الستوتية » من قمة رأسها الى أخمص قدميها . ان تكن واحدة منا نحن أطفال الحي الذين يلعبون في الشارع أمام البيوت فانها أصبحت منذ أول يوم لها معنا - دون أن ترشح نفسها أو يجرى انتخاب - ست الستات عند الشلة . ربما كانت أصغر منا سنا ، لكنها كانت لنا جميعا أختنا الكبرى ، بل اعزازنا لها يفوق اعزازنا لأخواتنا الشقيقات . . أكبر سعادة لنا أن تقنع بالجلوس على دكة البواب وتراقب هي لعبنا . لا طعم للذة والغلبة الا على مرأى منها . وهي « الأم » في « الاستغماية » . عندها نودع ما كسبناه من البلى الملون والرصاص اذا ضاقت

به جيوبنا • هي التي تقرر اذا كان الجون « محسوبا أو غير محسوب » •

لا بأس عندنا أن تقوم أحيانا لتشارك في نط الحبل ، بمفردها أو بين اثنتين تتوليان ترقيصها ، لتسحرنا برشاقتها الهوانمي ، أو لعبة « الرشته » فلا يكون بين الأخريات من هي أبرع منها وأخف قفزا على قدم واحدة أو احكاما في زحزة الطوبة من خانة الى خانة ، فاذا استراحت في « الخانة الرابعة » وضعت يديها في وسطها « وشتت » دون أن تستعين بمنديلها ، وهذا هو عيبها الوحيد ، فارتعشت أرنية أفتها ، إذ كان لها أفت دقيقة شماء مجذوبة المنخرين الى أعلا قليلا •

تشارك في اللعب تنازلا منها ، كأنما لكي ترى بقية البنات كيف يكون نط الحبل وأصول الرشته • قد تتشارك نحن الأطفال فيما بيننا ، ونشد بعض البنات من الشعر أو نوقعهن أرضا أو نرغدهن ونزقق في وجوههن ، لكن هيهات لأحد منا أن يلمس ست البنات بأصبعه أو يرفع في مخاطبتها صوته • كانت تمثل كل ما في قلوبنا الصغيرة من حماسة غامضة وتلهف مبهم للدفاع عن حرم مقدس جميل لا ندري ما هو •

ثم قبيل الغروب يطلع علينا باعم الجيلاتي التركي التزم ، عم سوسو ، ينفخ في بوق صغير ، فتنطلق حوله ، ويشترى كل

منا قمعا ، ثم تتفرق وندخل بيوتنا . . نفخ هذا البوق لا يزال
يرن في أذنى الى اليوم بعد أن جاوزت الستين .

ودخلنا المدارس الثانوية ، هنا وهناك ، ولبسنا البنطلون
الطويل ، وانقطع اللعب أمام البيوت ، واحتجبت ست البنات
عنا . ولكن جميع الأسر في هذا الشارع تتعارف وتتزاور ومعها
الأولاد وان كبروا ، فكنا نحس أن الشلة لم تنفض ، وأن ست
الستات ، واسطة العقد ، هناك وراء هذه النافذة في هذا
البيت . فاق طولها طولنا . فتاة حلوة في ميعة الصبا ، من حقها
اللهو والعفرتة ولكن الستوية ظلت تجلها من قمة رأسها الى
أخمص قدميها .

وكبرنا ، وأصبح فينا المحامى والطبيب والملحق الدبلوماسى،
وتزوج بعض أولاد الحى من بعض بنات الحى ، ولكن أحدا
منا لم يتقدم لخطبة ست الستات . قد تقول : هذا منطق غير
معقول ولا مبرر ونتيجة غير متوقعة ، ولكن ثق أن هذا هو الذى
حدث . أنا لا أعرف السبب فتفلسف أنت كما تريد . قل انها
كانت لاتزال في نظرنا هي أبدا شيئا مقدسا أبعد من منازلنا .
قل اتنا كنا تخطط في ذلك الوقت بين الجنس والتلوث ، أو على
الأقل بين الجنس والامتهان ، وكان لها في قلوبنا اعزاز وتوقير
لا حد لهما .

وعلمنا ذات يوم أنها تزوجت من شاب ابن ذوات من حى

الحسين • لقد أحسنا حينئذ وحسب بمقدار خسارتنا وحماستنا •
قلوبنا توجعت بأعين خافت ، ثم محونا ذلك كله بافتعال اشتياق
لرؤية الزوج ، فوجدناه شابا بدينا ، له رأس مكور ، ووجه
مستدير وودي ، شعره كث قصير أسود كالفحم ، لا يحب
الكلام ، بل يشارك في الحديث بإبتسامة تجمع أذنيه وتشق
وجهه • أحسنا أنه انسان ابن أصل ، طيب القلب جدا ، وأنه
سيكون لست الستات نعم التابع المطيع فاسترحنا ، لأن شخصيته
لن تطفى على شخصيتها •

وكان زواجها بمثابة عودة بعد انقطاع طويل لنفخ بوق بائع
الجيلاتى التركى القزم • فكما كانت عربته تجمعنا حولها ، أصبح
بيتها يجمع الشلة بعد تفرقها • بحثت عنا واحدا واحدا ودعتنا
الى بيتها ، وفتحت لنا صالونها • عندها تنفض المنازعات وتصفو
القلوب • التأمت الشلة فى هذا الصالون الذى لم يتبدل فيه
شئ مدى خمسين عاما • لم يتغير أيضا دارها ، ولكن زيارتى
المتقطعة - ربما - هى التى جعلتنى أقدر الجميع على ملاحظة
هبوطها سلم الحياة درجة درجة •

بعد زمن هو فى الحساب طويل ، وهو عندى كغمضة عين ،
كيف يارب أصبحت ست الستات الحلوة الفتية هذه المرأة
المحطمة • لا أعلن أن السبب هو سلسلة الأمراض التى مرت

بها . في قلبى شك أن زوجها ابن الذوات لم يفلح الا في تبديد
ما كانت تملكه ، بكسله لا بعدوانه .

في آخر زيارة لى دخلت على فى ثوب ذى كمين طويلين
وصف أزرار من أمام ، تتوكأ على ذراع زوجها وهى ترمقه
بحنان وتشكره بريق حلو . أحيانا تتوكأ الدادة العجوز على
الطفل ، هكذا رأيتها . جلست على المقعد بصعوبة ، وتناولت
الزجاجة منى بيد مرتعشة . تتكلم قليلا ثم تلهث . الشعر
الكستنائى أصبح نحىلا ، خالطه المشيب . سألتنى عن بقية
الشلة واحدا واحدا ، فأدركت أن زيارتهم لها قد قلت ، الدنيا
تلاهى . وانسرت نظرة منى الى زوجها ، فاذا هو لا يزال شابا
يدينا ، وجه مستدير وردى ، ورأس مكور ، وابتسامة تجمع
أذنية وتشق وجهه . لم تبيض فى رأسه شعرة واحدة .

ولما خرجت للشارع أدركت أيضا - وربما لأول مرة -
أن حى الحلمية الجديدة قد تبدل وجهها بوجه وأقواما بأقوام .
أحسست أنى انتهيت من تقليب البوم حتى وصلت الى ورقته
الأخيرة ، فقفلت غلافه السميك . مشيت وأنا أصيخ السمع
أتتظر أن يأتينى ولو من بعيد صوت تفخ بوق صغير اذ كانت
الشمس قد آذنت بمغيب .

(« التعاون » ، العدد ١٨٥ ، ١٩٦٦/٩/٤ ، ص ٨)

اعترافات . . ومضايقات .

لا أجهل أن كل افضاء بأسرار النفس لا يبرأ من ضعف
وسخف واشتهاء ذليل لصب الهموم على رأس المستمع ،
ولا يسلم من رغبة مريضة في لفت الأنظار ولو بالتعري ، وطلب
تبرير النقيصة الى استجداء الثناء عليها ، باعتبارها مظهرا لارادة
مستقلة تأبى التقيد بسلاسل قافلة الأسرى الطائعين . ومع ذلك
ألحت على نفسى اليوم - وهى كعهدنا أمارة بالسوء - أن
أحدثك عن بعض أسرارى ، فلم أقو على مقاومتها - شأنى
معهما دائما - ولعلك لا تعلم أن نشأت فى عصر كان يجب
الاعترافات ، ومن أوائل الكتب التى قرأتها فى صباى بالانجليزية
« اعترافات آكل أفيون » ، وبالعربية « اعترافات عريجي حنطور »
و « اعترافات مومس » . الخ . الخ . ولا أدري تعليلا
لاختفاء هذا اللون من الكتب فى الوقت الحاضر . ربما كانت
القصة هى التى قتلته ، أو لعله لقى مضرعه على يد بساب
« اسألونى » فى الصحف والمجلات . وانى آتمنى أن أبعث هذا

اللون من قبره وأضح كتابا بعنوان « اعترافات قصصى » ، يكون هذا المقال أول فصوله •

لا أزعج لنفسى قدرة على التنبؤ ، ولو تخيلت ثم خلت لكانت قراءة نشرة الأرصاد الجوية شافية لى وحدها من حماقتى ، فلم يكن اذن التنبؤ فى مطلع حياتى بما يحدث لى الآن فى شيخوختى هو سبب احجامى حينئذ عن نشر أوائل قصصى الا بأسماء مستعارة ، وعمدت زيادة فى التضليل الى سرعة التنقل بين رموز مختلفة لا رابطة بينها ، فكتبت مرة باسم « لبيب » وهو اسم لصديق أحبه ، وتلميح من بعيد بأنتى - يا للغرور - أفهم بالإشارة ، ومرة بامضاء « قصير » مبالغة فى السخرية بنفسى وان أضمرت أملا فى أن يفسرها بعض القراء بأنها تجديد لذكرى « قصير » داهية العرب الذى قال فى قصة الزباء : « لو كان يطاع لقصير أمر » فذهبت مثلا ، ومرة بامضاء « عبد الرحمن ابن حسن » حزن كنت أهيم بالجبرتى ، ومرة بامضاء « عابر سبيل » ، فقد كانت هذه صفتى فى الحياة حينئذ ، وربما الآن أيضا ، واكتفيت مرارا بالحرف الأول من اسمى ، ثم كنت أشتط فى ارهاق أصفار المطبعة فأتابع حرف الياء بسطر يكاد يكون كاملا من نقط متتالية ، كأنى أعوض ما فاتنى فى الطول ، ومرة باسم « أبو نهى » وهو كنيتى بعد أن رزقت بالولد • وآخر هذا العبث كان امضاء « شاكر فضل الله » وهى الحكمة التى

تكتب وغيرها من أمثالها على المقاعد العربية المطعمة بالصدف ،
والتي تقول بخط جميل « القناعة كنز لا يفنى » ، وكان هذا
مقعدى المفضل فى بيت صديق بدأت أخالطه ، وان لم أنعم فوقه
براحة وبقيت ساقاى مدلدلتين أمامه ، ولكنى كنت أجد شيئا
من البركة حين تتمسح كفاى حتى تتضمخا بعطر هذه الحكمة •

فعلت هذا لأنى كنت أؤمن فى تلك العهود كلها أن الكاتب
يكفيه أن يقحم رأيه على قرائه ، فينبغى أن يتورع بعدئذ من
أن يقحم عليهم نفسه فوق البيعة ، أو قل لعلى توهمت أن وراء
التستر حرية تسيح لى أن أخوض كما أشاء فى سيرة أصدقائى ،
أو أنبش عش زناير دون أن يسيح دمي • سمها ان شئت - كما
أزعم - تواضعا وحكمة ، وسمها - ان شئت - جينا وقله وثوق
بالنفس ، ولكن الحقيقة أيضا أنتى كنت أتشهى تذوق لذة عجيبة ،
أن أكون فى مجتمع من الناس ، أمل أن يكون بينهم واحد -
واحد وحيد على الأقل - قد قرأ ما كتبت ، فيثير الحديث
حوله ومن لا يعلمون أنتى أنا المجرم أو البطل فيفتحون باب
قلوبهم على مصراعيه ، وأستمع الى رأى صريح بلا مجاملة ، فان
كان مدحا أرضانى مرتين ، وان كان ذما جعلت أذنا من طين وأذنا
من عجين وكفى الله المؤمنين القتال •

والغريب أنتى رغم طول تلهفى على نوال هذه اللذة لم
أظفر بها مرة واحدة • الظاهر أنتى كنت أخالط أناسا لا يقرأون ،

أو يقرأون كل شيء إلا ما أكتب ، أو أنني كنت أكتب في صحف
ومجلات بلغ من عار بوارها أن أصبحت سرية •

وقد ضقت مرة بطول خييتي واخفاقي فزل لساني في مجتمع
ذات يوم وسألت الحاضرين وسط الحديث عرضا ، وأنا
أتصنع التعاطب : « هل قرأتم مقالا يامضاء كذا في صحيفة
كذا ؟ » ، وكان هو آخر مقال لي • وكنت أظن أنني أحسنت
المكر ، فاذا بي أجدهم — لشدة دهشتي — قد أدركوا على الفور
أنني كاتب هذا المقال •

الظاهر أنني لا أحسن الكذب ، أو لعل المثل القائل « من
كانت على رأسه بطحة يحسس عليها » هو الذي هداهم الى
السر • وكان من سوء حظي أن ذلك المقال هو أسخف ما كتبت ،
فأنهالوا على توبيخا وتقريعا ، فتبت من ذلك اليوم عن العودة
لمثل هذه الحماسة وألجمت لساني وضاعت على الى الأبد هذه
اللذة التي جريت وراءها طويلا •

والغالب أنني تعبت من هذا التستر ، أو قل مللته لطول
صحبته ، وربما اشتقت للشعور حين تقدم بي العمر أن تمضي
سيرتي كلها ملخصة في ثلاث كلمات « صرخة في واد » ، فكشفت
عن نفسي فاذا بي على غير ما أنتظر أقع في متاعب عجيبة لا قبل
لي بها ، بحيث أصبحت أترحم على أيام أسمائي المستعارة ، فقد
كنت بها أكثر سعادة •

أول المتاعب هذه الحيرة الشديدة ازاء ملاحقة الناس
لى - أصدقاء وغرباء - بأراء شديدة التناقض • يقول لى
واحد عن قصة أنشرها : « اياك أن تعدل عن هذا اللون ، شىء
بديع وحاجة عظيمة » • فأشك في ذكائه قليلا • وهذا آخر يقول
لى عنها : « لم أفهم كلمة واحدة • ماذا تريد أن تقول ؟ ينبغي
أن تعدل عن هذا اللون الى غيره ، وتكتب كبقية زملائك
الناجمين عن الحب والمراهقات ، هذه هى بضاعة اليوم » •

وأقل بعد ذلك أياما تسمع أذنى اليمنى وسوسة من
اليسار تقول : « اعدل عن هذا اللون » ، وتسمع أذنى اليسرى
وشوشة من اليمين تقول : « اياك أن تعدل عن هذا اللون » ،
فاذا أمسكت بالقلم تلجلجت طويلا ولا أفلح في خط كلمة
واحدة الا اذا نسيت الاثنتين معا • ومع ذلك يظل نقد ثانى
الفارسين ينخر في قلبى ، فأتعمد السهولة والبساطة على خلاف
طبعى ، فاذا به هو الذى يكلمنى بالتليفون على الريق ويقول
لى : « برضه مش فاهم » • أكاد أراه يطلع لى لسانه •

أما الفارس الأول فيكتمها في قلبه حتى يلقانى ليقول
ولو بعد مضى ستة شهور انها قصة تؤذن بتدهورى وخيابتى •
ان ارضاء الناس جميعا من رابع المستحيلات ، يأتى قبل
العول والعنقاء والخل الوفى •

وأصبحت كذلك اذا كتبت قصة أجعلها وليدة الخيال
وحده إلا وخرج لى انسان (لأجمع بين الرجل والمرأة)
يقول لى :

— ألا تستحى أن تصفى بهذا الوصف القبيح ، وتشنع
بى علنا ؟ خلق الله كلهم بين يديك فلماذا جاءت قرعتك على ؟ هل
أنت قصصى أم جاسوس أم بطل عالمى فى الغيبة ؟

ثم يقاطعنى ويدير دعايته بتقبيح سيرتى والازراء بأدبى
محذرا بقية الناس منى • حتى فكرت أن أعدل الى كتابة قصص
تدور على السنة الحيوان تقليدا لكليلة ودمنة • وحتى لو فعلت
هذا لما سلمت — فيما أظن — من انسان يظن أنى قصده حين
وصفت الثور « شترية » • سأكتب عن الأسود والفيلة
والطواويس وحدها •

لكن الأدهى من ذلك كله أننى وجدت أغلب الناس الذين
أعاشرهم عن مودة قديمة أو حديثه قد انقلبوا فجأة الى
« متعهدي توريد مواضيع قصص بالمجان ولوجه الله » • هم كل
واحد منهم اذا قابلنى أن يروى لى من الباب للطاق حكاية سخيفة
ثم يضيف :

— ألا تصلح بذمتك موضوع قصة هائلة ؟ لماذا
لا تكتبها ؟

طبعا هذا الصديق المتطوع يخفى العزم على التنايد بي
اذا كتبت هذه القصة قائلا اننى سرقتها خلسة من حضرته •

هذا التطوع شائع بين كثير من الناس ، يظنون في أنفسهم
خفة الدم وهم ثقلاء جدا ، بل هم من الغرور بحيث يؤمنون أن
كتابة القصة عبث لا يليق بكرامتهم فيخلمونه على الحمقى أمثالي
مدا لهم في غيهم السخيف •

تصور أنتى اضطرت أخيرا أن أهرب من الحلاق الذى
أترين عنده منذ صغرى ، ومنذ أسماى المستعارة ، رغم أنتى
أستريح لرقه لمسته وهو يلكز رأسى ليجعلنى أطأطىء البصلة
لينكشف له قفاى عن آخره • أو لا يعلم أن ثورة أعصابى
حيثذ تبلغ ذروتها ؟

أندرى لماذا هربت ؟ لأنه بدأ أيضا يقترح على موضوعات
لقصصى •

وجاء على زمن أصبحت فيه لا أقوى على دخول دارى اذا
رجعت آخر الليل الا بعد أن أحك على بلاط السلم كل ما علق
بجمعبتى من هذه الحكايات كما يحك العائد من ليلة مطيرة
حذاءه على المسحة الليف أمام الباب • (على فكرة : لماذا
اختلفت هذه المسحة في أيامنا هذه ؟)

والألغن من هَذَا كله . . رجل لا أعرفه ، أقابله في مكتب
حكومي في شغلة ، ويكون قد سمع باسمي ولا أدري أين .
فأراه يترك المسألة التي جئت من أجلها ويقبل على متعظفا ودودا
وهو يقول : « أنا مبسوط يا أستاذ من قصتك المسلسلة » .
ولم أكتب عمري قصة مسلسلة ، أو يقول انه معجب بكتسابي
الأخير ، فاذ نكثته تبين لي أنه لم يقرأه .

وآخر الدواهي رجل قال لي أخيرا وهو يمدحني بلا سبب
ولا غم :

— انك رجل تقدمي ، ولكن هل كتبت شيئا بعد « لمبة
الست نفيسة » ؟

يشير الى قصة كتبتها منذ أكثر من عشرين عاما باسم
« قنديل أم هاشم » .

• خرجت من عنده وأنا أكاد أطم الخدين •

(« المساء » ، ١٩٦١/١١/٦ ، ص ٨)

من ٣٧٠ الى ٤٠٠ !

بارك الله فيمن انتفع ونفع ، فأنا أحب لك أن تنتفع بتجربتي ، ولست أضمن لك مفعولها مائة في المائة ، فالناس تختلف . إذا كنت مثلي من المصابين بهوس القراءة ، لا تستطيع أن ترفع بصرك عن كتاب - أي كتاب - إلا إذا كنت - على سبيل الحصر - نائما أو سائرا أو منشغلا بتناول الطعام . أقول على سبيل « الحصر » لكي يسرى الحكم على أماكن قد تخجل من الاعتراف بأنك تقرأ فيها ، وعلى أوقات يتهمك فيها الأصدقاء بالجليطة وقلة الحياء ، لأنك تحدثهم وتقرأ في آن واحد .

وإذا كنت مثلي لا تفسر المرض إلا بأنه فرصة بديعة تتيح لك أن تدلج نفسك وتتدلج على أهلك . تقول كل خمس دقائق اغلقوا النافذة إذا كانت مفتوحة ، أو افتحوا النافذة إذا كانت مغلقة . وتقول كل ساعة : اعملوا لي كوبا من الليمون . وتقول كل ساعتين : أين البودرة ؟ غيروا لي الفانلة وملاية السرير ووش

المخدة • أين الكولونيا ؟ وتقول ساعة الغداء : أين الدجاجة
المسلوقة ؟ وإذا حل العشاء هل اشترتكم التفاح ؟

وجع الدماغ فرصة بديعة للهرب من كل شيء يدعو الى
وجع الدماغ • فما تطل مشكلة برأسها الا قلت : عن اذنكم أنا
تعبت قليلا وأريد أن أستريح • نلت ما تريد دون لوم أو تقريع •
جميع المطالب المالية مؤجلة ، همها وقع على اكتاف غيرك •

إذا ضمنت مثلى هوس القراءة ودلع المرض وسألتنى : ماذا
أقرأ وأنا مريض ، أجبتك من واقع تجربتى هكذا :

من ٣٧ إلى ٣٨

ثق أن الصحف اليومية لن تسليك ، بل ستصيبك بارهاق
شديد ، والبركة أيضا في الحروف الجديدة المكعبة المنسمة •
كل مشاكل العالم ستبدو لك تافهة تتضاءل بجانب مرضك
الضئيل الذى تحب أن يتضخم فيتضخم • يخيل اليك أنك قرأت
الكلام ذاته أكثر من مرة ، وستشعر ، لأنك تتنفس بضعف -
هكذا تزعم - أن كتاب اليوميات يحزقون حزقا شديدا ، وأن
عملهم عكس للمنطق • انهم يصبون في المطبعة كستباننا من العصير
فتخرج لك من الطرف الآخر مصاحبة ابشة قصب تعرش حولك
وتلم عليك ذباب الأرض كله • ستجد الكلام مجرد شقشقة ،

وأن الخوف من الحرب حكاية قديمة قد باخت وشاخت وحقت
احالتها على المعاش ، وأن لا ضير عليك من اغفال الاطلاع على
آخر أخبار مؤتمر جنيف . . نم وقم ، وقم ونم كما تشاء ويشاء
المرض حتى ولو امتد السنين الطوال ، فانك ستجده منعقدا عند
شفائك . كم أتمنى أن أشتغل مندوبا في مؤتمر جنيف !
أما البواب الذي قتل سيده الفرديانة فأنت تعرفه منذ كنت
صبيا صغيرا .

ثم أنت يا أخى لست قارىء صحف فحسب ، بل أنت فى
الأصل وفى الصميم قارىء كتاب - أى كتاب - لذلك أنصحك
أن تنتهز الفرصة وتقرأ الروايات النهرية الطويلة التى لم تجد
من قبل وسط مشاغلك وقتنا لتجرعها . خذ ثلاثية نجيب محفوظ
أو « الأرض » للشرقاوى ، أو « الساقية » للصاوى وكيل
الوزارة ، أو « الرجل الذى فقد ظله » لغانم .

لست أريد أن أفاضل بينهم ، أو أن أديج مقالا فى النقد ،
ولكنى لو كتبت لك الروشته لما ضمنتها الا الدواء الذى جربته
أنا ونفعنى وقلت فيها : جرعة كبيرة من ثلاثية نجيب محفوظ
على الريق وبين كل أكلة وأكلة - أحتفظ بزجاجة الدواء تحت
المخدة ، فهى التى احتملتها وهى التى أسعدتنى ، بل انى أشكر
المرض الذى أتاح لى قراءتها . انه كان من بين جميع أمراضى
أخفها دما ، لأنه أقلها عداة للنن .

وجدت أكبر راحة لأعصابي وبدني وذهني في هذا
الأسلوب التقريرى البديع الذى يدنى جميع السماوات الى
مستوى يدك حتى تستطيع أن تلمسها دون أى مجهود منك
ودون أن تصاب روحك برجة عنيفة مزلزلة • حتى الدموع التى
ذرفتها وأنا أصعب « الست أمينة » الى بيت أمها بعد طلاقها ،
وأنا أسير مع « كمال » وراء نعش لا يعلم أنه يضم حبيبة
عمره •• هى دموع رقراقة تزول بمجرد أن أمسحها بطرف اصبعي
من تحت جفني ، حزن مهذب جنتلمان يشجيك بكل أمان ولا يضر
المعدة ولا القلب • الكلام كالماء الزلال سهل بلا تعقيد ،
لك أن تمزقه به ، أو تحتسيه على مهل ، أو تشربه وفمك يعب
منه عبا •

سيزداد حمدك لسهولته اذا كنت قد قرأت قبل مرضك
شيئا لبشر فارس •• والتفاصيل التى يعرضها « نجيب » هى
الوسط المثالى بين « اللت والعجن » وبين « اللبيب بالاشارة
يفهم » • أسلوب له قدرة هائلة على أن يمشى مع كل انسان
حسب خطوه • وعلى ذلك قلم يترك نجيب فى نفسه حاجة لم
يقلها ، بل جعل قصته كلها خطأ متصلا ليس فيه عقد ولا مطبات
ولا محطات لا يمكن الوقوف قبل بلوغها •

لذلك كنت أقرأ الثلاثية وقت مرضى وأنا مستريح كل
الراحة • أقرأ قدر طاقتي فاذا تعبت وقفت دون أن أحس بلهفة

على ما فاتنى • والعجيب أنتى مع ذلك كنت أحس اذا عدت لها أنتى كنت فى شوق شديد اليها ، لأنها تأخذنى من جديد بين أحضانها بكل حنان ، هذه هى براعة نجيب ومهارة فنه المهذب • انه لا يهجم عليك بمخالب وأنياب ، بل، ينفذ الى روحك نفاذ أبخرة الخمر ، لطيفا مترققا مهذبا • انه يملكك دون أن تحس أنه يأسرك أيضا •

من أجل هذا لم أنصحك أن تقرأ فى هذا النوع من المرض « اللص والكلاب » ، فانك لن تستطيع أن تلقىها من يدك الا اذا فرغت منها وشعرت أنك تجرى وتلهث كالكلاب •

من ٣٨ الى ٣٨٥

لا صبر لك على الأسلوب التقريرى والمطولات ، أنت تريد كلاما كالملبس يحلى فمك دون أن يزحمه ، وتستطيع أن تمصه وتقرقشه لأنه صلب هش معا ، فأصلح شىء أنصحك به عن تجربة هو أن تقرأ ديوانا من الشعر الحديث ، فهو سهل القراءة خفيف الدم • لا تشغلك القصيدة - وهى من عدة صفحات - الا دقائق معدودة لأن كل سطر كلمة أو كلمة ونصف، شكلها شكل الاستمارة !

وستعيناك خلخلة صواميل عقلك قليلا من أثر الحمى أن

ينفذ من خلالها اليك بعض معانيه العميقة التي يشق فهمها على
الأصحاء ، وتكون مسارعتك الى الانبساط أضمن اذا كنت من
أحباب صديقي الأستاذ اسماعيل النقيب - بدار « أخبار
اليوم » - وأهداك نسخة من ديوانه غير المطبوع الذي جعله
تريقة بريئة خفيفة الدم على الأنواع الرديئة من هذا الشعر
الحديث • من روائع ديوانه القصيدة التالية •

المعزة الحمراء

في المزارع الخضراء

معزة حمراء

تمامي في الفضاء

في الوحدة الخرساء

ماء •• ماء

ونسيم يأتي من بعيد

حلو كالنمشيد

منذنة

وريح هب من المنزلة

وسمكة القرموط

في بحر غويط

ووطاويط

في المحيط

تقاطع الطريق - يا حبيبي ا

من ٣٩٥ الى ٤٠٥

دمك يغلى ، الفاظك ذابت فوق النار في عجينة واحدة ،
وليس في العجين روابط ولا تسلسل . كلامك أصبح خطرقة
بليغة بدون معنى عند الأصحاء ، ولكنها عندك أفصح تعبير عن
موضوعيتك . . . كان المحرومين من الكلام كلهم - أحياء
وأمواتا - قد وجدوا في فمك مخرجا لكتبهم ، فألقى كل واحد
ما عنده القاء حجارة من كيس .

ومن وراء هذا السيل المنهر غير المفهوم نطق أخرس
لرصيد من الآلام والأوجاع والأشواق والصبابة لم تصب قط
من قبل في الفاظ ، فأنت في هذه الحالة أصلح قارئ للأدب
السيربالي ، أحدثك عن تجربة . ظلت معي مسرحية « في انتظار
عودة ربو » لصامويل بيكيت شهورا طويلة وأنا مصمم على
قراءتها وحاشد كل جهدي لفهمها . وكما يفعلون بالجواد قبل
السباق كنت أريح نفسي في التنزه والترفيه استعدادا للجلسة
التي أتناول فيها المسرحية ، حتى لا أتهمها بأنتى لا أفهمها لأنتى

متعّب أو كسول أو سارح الذهن • ومع ذلك قرأت صفحة
أو صفحتين قلم أفهم شيئاً • وعدت من جديد الى « الريحيم »
القديم وتناولت المسرحية من جديد ، فاذا بها تزداد غموضاً •
المسألة لا تخرج عن واحد من اثنين : إما أن يكون المؤلف مخبولاً
أو آكون أنا المخبول •

فلما قرأتها وقد بلغت درجة الحمى بمستوى ٣٩.٥ هالتي
أنتى فهمتها بسهولة ، بل وجدتها آية في البلاغة والذكاء •
هزنتى مأساتها الى درجة القهقهة التي تسيل الدموع ، وأنحت
على نفسى باللائمة وأزريت بها لأنى لم أفهمها وأنا صحيح • كيف
حدث ذلك • وأصبحت المسألة لا تخرج عن واحد من اثنين :
إما أن يكون المؤلف وأنا من المخبولين أو يكون المؤلف وأنا
من أحكم الحكماء وأعظم الفلاسفة • وطبعاً فضلت الفرض
الثانى • • لأنه كان واضحاً كالشمس •

هذه هى مشكلة المدرسة السيرالية • ان عملها يعتمد على
التمزيق ، وأدواتها هى الأتسلاء ، ومنطقها هو الخطرفة ،
لأنها تابعة رأساً من النفس الانسانية فى عز انتقادها وبغير زيف
أو خداع • انها تبصق على كل القواميس وكتب النحو لأنها
تعتقد أن ضمير الانسان قادر على الكلام بصوت آخرس ،
لا لغة له ولا نحو ، ينفذ الى النفوس فيرجها رجاً شديداً •

وكان من دلائل شفائى من مرضى الذى أقعدنى فى الفراش

هذه الأيام الأخيرة وحرارتي ٣٩° أتى استطعت أن أترجم لك منولوجا في هذه المسرحية ينطق به رجل هو رمز للانسان الأسير في يد الظلم الاجتماعي ، الضائع في الكون ، لا يفهم شيئا ، ولا ينقطع تشوفه للفهم . أترجمه لك لأتسى حين قرأته في درجة ٣٩° كنت أقهقه من تريقته على كلام الفلاسفة والفقهاء ، وباطن التريقة حزن شديد وآلم ممض ، ومأساة الانسانية كلها :

قال « لاكى » — وهو خادم في عنقه جبل وله اسم من أسماء الكلاب : بفرض ما تنطق به المؤلفات العامة لكاني وماني من وجود اله شخصى — احم احم احم — بلحية بيضاء — احم احم احم — خارج عن نطاق زمن بلا مليانه ، وقداسة سليانه يحبنا حبا شديدا مع وجود استثناءات لأسباب مجهولة ، ولكن الزمن سيكشف عنها ، وهو مثل أمونه المؤلوهة يتألم مع كل الذين أطيح بهم في النار ، من نارها وسعيرها اذا طال بهما العمر . وهل في ذلك شك سيحترق الكون بمعنى اندلاق الجحيم على السماء ، ما تزال زرقاء ساكنة كل السكون بسكون وان يكن منقطعا الا أنه أفضل من لا شيء . مهلا مهلا ، ونظرا لما هو أكثر من ذلك تشهد المؤلفات التي لم تتم والتي خلفها شرم وبرم للأثروبوبولوجيا ، بأنه نبت بدون وتوجهها المجلجلجلس الأعممل كل شك الا الشك العالق بأعمال الانسان أنه نتيجة

للمؤلفات التي خلفها كاني وماني دون اتمامها ولأسباب مجهولة
من ينكره الكثير من أن الانسان عند شرم وبرم أن الانسان
ياختصار أن الانسان في كلمة وجيزة بالرغم من تحسن الأكل
والهضم يذوب شوقا وضياعا ثم يذوب شوقا وضياعا » .

للمونولوج بقية طويلة أؤكد لك أنني ترجمتها أيضا
ولكني أضيف منها الآن . على كل حال أقترح على « مسرح
الجيب » أن يقدم هذه المسرحية في الموسم القادم ، وينص في
الاعلان : « ممنوع الدخول الا لمن كانت درجة حرارته
٤٠ ° » !

(« المساء » ، ٢٧/٨/١٩٦٢ ، ص ٨)

حماقة ..

كان يوماً لا أدري بوجه من تصبحته ، فلم يخرج من يدي
الا أن أقوم من ارتكاب حماقة سخيفة لأرتكب حماقة أشد
سخفاً ، أول محاولة للبحث عن تفسير معقول - والبحث في
الحقيقة هو عن تبرير واه جدا يسمح خجلى وينسينى جراحى -
ان قلت لنفسى : لاشك أنك كنت فى ذلك اليوم الأغير فريسة
اعياء شديد • ركبت منذ أن استيقظت • والاعياء على الصبح
ألعن من الاعياء آخر النهار • الاعياء يخرس صوت العقل
والحكمة ويفسد الاتزان •• وأكثر جرائم العصر ليس مرجعها
الاتفعال أو العنف ، بل الاعياء ، « فالغريب » فى قصة ألبير كامى
لم يقتل لأنه كان منفعلاً ثائراً ، بل لأنه كان مصاباً بأعياء ووحى
أورثه زهقا شديدا •• من الناس كلهم • من الحياة كلها ••
لا وصف لجريمته الا بأنها كانت حماقة كبيرة • ولحسن الحظ
كانت حماقاتى صغيرة ، لأننى لست بطلا ، لا فى الحياة ولا فى
قصة ، والا لكنت قد قتلت أنا أيضا - ربما - فى ذلك اليوم
الأغير •

ورغم الاعياء بقيت لى والحمد لله مسكة من العقل . فلم ينظر على هذا التفسير ، هذا التبرير ، وقبلت أن أواجه الحقيقة ، ولو كريمة . . أدركت أن مرد حماقاتى الصغيرة هو طبع أغاليه منذ أن وعيت لنفسى فلا أغلبه بضربة قاضية ، ان صرغته أحيانا صرغنى أحيانا . . وحين أدركت ذلك لم يكن ندمى على ما اقترفت بأقل من حسرتى بأن العمر الطويل الذى قطعته والتجارب العديدة التى حصلتها له تقتلع هذا الطبع من جذوره ، وكانت جداتنا تقول : طبع الانسان لا يفارقه الا على ليفة المغسل . . أى عند باب القبر .

حاشا أن أزعم لنفسى فضيلة أتجمل بها وأزهو ، فأدعى أن مرد هذا الطبع هو وثوق متأصل بلا برهان ورغم الدروس التى تدحضه بأن الناس كلهم مجبولون - مثلى ! - على سماحة النفس . . على افتراض مبدأى احسن النية لا لسوء النية فى كلام الغير وتصرفاته . فلو كان هذا هو الحال لما عد ما ارتكبته حماقة . . الحقيقة الكريمة التى واجهتها ان مرد هذا الطبع هو تضعف سخيى مستخذ وانهازام سريع أمام الميل الى فتنة الاعجاب بالنفس . . أى توهم قدرتها على الانفراد - فى زعمها - بالتعلى تلقائيا بميزة لا يبلغها الغير - ان بلغها - الا بمشقة ، بإبتكار ما يعجز عنه الغير ، ولكن - صدقنى - أنتى أتحمامل على نفسى ، كعادتى ، فلم آكن فى ذلك اليوم الأغير الا ضحية

قلمى ، وهو منساق كالأعشى مع تصاريف اللغة ونزواتها ، فالذى ارتكب الحماقة هو لا أنا ، وكل كاتب يعلم : كما هناك زلة لسان ، هناك زلة قلم .

دعنى أروى لك ما حدث :

كنت أكتب مقالا أريده أن يتصف بالظرف لكى لا أثقل على القراء . وأعجبنى هذا الظرف فغفلت عن قلمى وهو منساق مع تدفق اللغة وإيحاءاتها فاذا بالظرف ينقلب الى ظرف مفتعل . أفرع . . فجاء قميئا باردا سمجا ، دمه كالبق ، وانشاق قلمى بسبب هذا التطرف الممجوج فخرجت منه نكتة سخيفة جدا ، لا أدرى كيف رضى أن يكتبها أو أن يسكت عليها بعد أن كتبها فلا يشطبها ولم أتبه فوق ذلك الى قدرة هذه النكتة السخيفة على اصابة الأبرياء .

ودهشت أبلغ الدهشة حين حدثنى صديق أعزه وقال لى ان عشرة أشخاص على الأقل حملوا اليه هذا المقال وقالوا له وهم يضعون الأصابع السبابة على النكتة المكتوبة : انظر ، انه يقصدك ، هذه هى حقيقته . . خذ حذرک منه وان زعم أنه صديقك .

وصديقى لحسن الحظ رجل كريم ابن ناس . فزجرهم وقال

لهم : لا شأن لكم بما بينى وبينه ، أنا أدري به منكم .. كم كنت
أتمنى أن أرى وجوههم حينئذ ، أظنها علتها حمرة الكسوف
والخجل ؟ .. هيهات ! .. يارب .. لماذا يتطوع أناس بالوقية
بين الناس .. يظنون أن هذه الوقية سلم يرقوذ به الى
الفوز بصداقة من ورائها منفعة ، ولو كان كل الناس كصديقى ..
هيهات .. لهوا من هذا السلم حقراء أدنياء فتندق على
الأرض رؤوسهم المساوية كالبطيخ الفاسد . ولكن رؤوسهم
لا تزال سليمة كالزلط لأنهم وان كثروا ، فأمثال صديقى قليل .

الحماسة الأخرى التى ارتكبتها مردها أننى أفرطت فى
الحماس - كما أفرطت من سابق فى التطرف - فوقعت هذه
المرّة فى التهور .. كان ذلك فى حديث عن رجل أجنبى رأيتّه
يتولى عنا خدمة الخط العربى والعناية به ، أعترف بأننى مطبوع
على التعصب والغيرة الشديدة فى كل ما يمس أمتى ، لا أرضى
الا أن تقوم نحن بما هو واجب علينا ، لا تقعد فننتظر أن يتولاه
الغير عنا ، استسلمت للانفعال والحماس ، وبالغت فى صب
قوايم اللوم على هذا القعود منا ، من فرط التحمس وقعت فى
التهور .. فأثكرت جهودا كثيرة بذلت عندنا ، غمطت حق
أصحابها ، ظلما منى ، وكان ينبغى أن أثوب للرشد فأشيد

بفضلهم وأشكرهم ، ، وأفلننا من الشعوب التي تهيم بتعذيب
أنفسها بالنقد المرير والاستخفاف بكل ما تفعل .

أنصحك اذن - وان وثقت أن نصحي سيضيع هباءً عندك -
لا تفرط في التطرف السمج ، وأن لا تفرط في الحماس لئلا تقع
في التهور الأحمق .

(« التعاون » ، العدد ٢٨٥ ، ١٩٧٠/٧/٥ ، ص ١٠)

لقاء الحياة • •

في التحول من الصبا الى الشباب حين بدأت أستفيق للقاء الحياة ، وأتأمل في وجوه الناس ، وأقول أين طبعك من طبائعهم، هذه المحاولة للاندماج في المجتمع تستحق أن توصف بأنها عصبية ، لأنها تجرى في سراديب النفس وسط أسرار ووراثات مجهولة ، وغالبا بلا وعى بها ، وبدون ارشاد من أحد وبلا سند من التجربة ، ومع ذلك فسيطغى أثر هذه الفترة القصيرة العابرة على بقية العمر كله • من ذلك اللقاء تخلف في ذاكرتي احساس أمض قلبي حينئذ بأن الناس ينقسمون الى ثلاثة أنماط •

نمط تتمثل له الحياة في صورة قنيصة ممتنعة ماكرة ، لا تؤخذ مواجهة دون رضى منها واستسلام ولا تؤخذ غلابة ، وفي وضوح النهار ، بعد قياس قوة القانص بقوتها في معركة شريفة تستنكر العذر • وانما تؤخذ بالالتفاف من ورائها ، بالحيلة والمؤامرة • ليس هذا فحسب ، بل يحس هذا النمط أيضا أنه يسلب هذه القنيصة لنفسه من يد الغير ، لو فتشت صدره

لوجدت فيه ضمير اللص • ليست المعركة بقياس القوى - ثنائية
بين القانص والقنيصة ، بل ثلاثية بقياس المكر - بين مكر
القانص ، ومكر القنيصة ومكر بقية الناس •

يوصف هذا النمط بأنه حويط ، ماء من تحت تبن ، أزرق
الناب • ورأس الفضائل عنده في الصمت والتكتم والمداراة ،
والشك والريبة والحذر • كلامك اليه مهما كان بريئا وجاء
عفوا من غير سابق تدبر ، حتى في أتفه الأمور ، تلتقاء أذن له
تبدى الذكاء - بمعناه اللغوي ، وتلقاه الأذن الأخرى - وهي
تبدى البلاهة - بالفحص والامتحان والتقليب على الجنين
لتعرف ما تحته وما وراءه ، لأنه مؤمن أن كل الناس مثله •

تستطيع أن تقول ان هذا النمط مصاب بحول لا في عينيه
بل في أذنيه • باب بيته لا يفتح مباشرة على الحوش المكشوف ،
بل على ممر مستقوف طويل يتعرج ذات اليمين أو ذات اليسار
قبل الوصول • وغلق النافذة ألد على يده من فتحها •

ليس هذا حاله مع الدنيا فحسب ، بل مع الآخرة أيضا ،
فقد أحسست أن الجنة عنده هي أيضا قنيصة تؤخذ بالمكر
والحيله ، الشريعة نصوص للظواهر لا لبراس للقلوب ، والتدين
مغامرة مضمونة : ان صدق الوعد فقد كسب وخسر غيره ،
وإذا لم يصدق فلن يخسر شيئا ، سيكون مثله مثل بقية
الناس •• لن يكسب أحد شيئا دونه •

والنمط الثانى عنده أن الحياة هى عملية نصب كبيرة • انها مسرحية عالمية : وراء الستار تيه بلا حدود أو معالم ، ايس به ساعة تدق ، وفيه حشد من المخاليق الغلابة ، كلهم سواء فى المنشأ والمصير • وأمام الستار حيز محدود مكانا وزمانا • • هذا يقوم بدور الملك ، وهذا بدور الخادم • هذا هو الضاحك وهذا هو الباكي ، أبطال وكومبارس • ولكن كل هذا لعب فى لعب ونصب فى نصب ، وعمما قليل سيدل الستار ويبتلع التيه كل الممثلين ، فاذا هم من جديد جملة من المخاليق الغلابة ، كلهم سواء فى المنشأ والمصير • ولا يكفى هذا اللعب كله ، بل المسرحية ذاتها غير مفهومة لا معنى ولا فرضا ، ومع ذلك لا ينقطع تمثيلها ليلة بعد أخرى ، وتقابل بالتصفيق والصفير معا •

وهذا النمط لا يعيش الحياة ، بل « يمثل » أنه يعيش الحياة • انه نمط مأساوى • فى القلب ضياع ، وعلى الشفاه ابتسامة الاستخفاف • هذا النمط هو عادة ظريف ، خفيف الدم ، بحبوح ، مستهتر ، فضفاض ، متلاف سكير ، يكربه عنف الدهاء ، بل فرط الذكاء • المحنة عنده هى الفصل الأخير فى المسرحية ، مؤجل تمثيله لما بعد ، لا داعى لأن يشغل به نفسه الآن • ولكنك اذا فاجأته بسؤالك : من أنت وماذا تفعل ؟ لحار ولم يستطع أن يجيبك •

والنمط الثالث عنده أن الحياة حيوان ضخمة ، وأنه هو

وليدها ، حيوان مثلها ، هي أكل وشرب وتناسل ، كل متعة أخرى
إذا لم ترتد الى لذة حسية فهي هراء • قد يكون من خريجي
أكبر المعاهد ولكن لغته ستظل دائما هي لغة الحواس ، والجنة
عنده دوام نسيانه بين لذائذ الدنيا الحسية •

تبينت هذه الأنماط فانتقبض قلبي • أحسست أنها تخدعني
عن الحياة • كنت واثقا أن الحياة في حد ذاتها متعة ليس كسلها
متعة • ولكن يهدرها ويفسدها ويثلم شرفها أن تؤخذ بالحيلة
والمكر والمؤامرة - كالنمط الأول - أو بالنصب وتمثيل دور
من الأدوار دون أن أعيشه كالنمط الثاني ، أو أن أعيشها معيشة
الحيوان - كالنمط الثالث •

ان أردت تعلم هذه المتعة فينبغي لي أن أتبين أنها أكبر
نعم الله سبحانه على ، وأن ألقاها رافع الرأس وجها لوجه ، لقاء
حبيب بحبيب ، وتمنيت أن لو أصبح شاعرا يتغنى بالحياة •
وما ألد أحلام الشباب •

(« التعاون » ، العدد ١٧٤ ، ١٩٦٦/٦/١٩ ، ص ٨)

مجرد ظهور ..

كم عمر التلفزيون ؟ لم ينفع مر الزمن الطويل ولا الالف والعادة في تهدئة عنف هذه الهجمة ، انها لا تزال تتكرر معى بنفس الشدة وصدق الوفاء لم أظهر فى التلفزيون مرة الا كان حتما أن أقع من غد - وربما على الريق - فى هذه التجربة القاسية ، يلمنى فى الطريق أحد معارفى القريين أو المتطوحين فيهجم على ، وقد ينتقل جريا من رصيف الى رصيف معرضا نفسه للدهس ويوقظنى من سرحانى ويشد على يدى ووجهه متهلل بالبشر والفرح كأنه يحمل الى أجمل تهنئة على فوز عظيم :

- رأيتك أمس فى التلفزيون ..

يتملكنى حينئذ شعور غريب ، كما تملك الأرض فى تلك اللحظة قدمى المسمرتين ، نصفه تبلييم ، لاشك أن فى أصبح نصف مفتوح انفك رباط شفتى السفلى ، اندلق دلو من البلاهة على وجهى ، لسانى يحاول أن يعثر على كلمة غير بائخة فلا يفلح ، لا أدري ماذا أقول له ؟ هل أقول متشكر ! أشكره

على ماذا ؟ من الغرور أن أشكره لأن عينه تكحلت برؤية طلعتى البهية ، ثم - يا أخى - لكن من الذى ينبغى عليه أن يشكر الآخر ، أنا أم هو ؟ ها أنذا أهرب من الغرور فأقع فيه بلا وخز من الضمير ، وكل مغرور يزعم أن ليس فى العالم رجل حقانى مثله ، أم أقول له : طيب يا سيدي ، وماذا جرى فى الدنيا أو للدنيا ؟ فأجابه بتقريع مهما تستر بالأدب أو المزاح فانى أكرهه لنفسى ، لست قواما على الناس حتى أوزع عليهم التقريع بالعدل والقسطاس ، وأشد الناس ارهاقا للأعصاب هم الحنابلة القوامون على الناس . انى أحب المثل البلدى القائل « واحد شايل دقته ، وافت تعبان ليه ؟ » وان كنت لا أدرى معنى كلمة شايل هنا ؟ أهى مخلوقة هذه الذقن ، أم مرفوعة فى الهواء من الكبر والخيلاء ؟

ونصفه احساس بالحسرة ، أظل أتطلع الى وجهه وأحملك فى عينيه مستجديا عبارة تثليج صدرى بضيفها على هذا الخبر العظيم ، خبر رؤيته لى فى التليفزيون ، أستجدى منه أن يقول لى : وكان كلامك حلوا وأفكارك رائقة ، أو حتى أن يقول : وافقتك على رأى وخالفتك فى رأى ، أو حتى - والله العظيم - أن يقول : كان كلامك زفتا وآراؤك قطرانا ، فأنا لم أذهب للتليفزيون وأنا مصاب بالخرس ، لا لشيء الا لأن تظهر الناس طلعتى البهية ولا أنبس بحرف ، بل ذهبت لأتكلم ، لأقول شيئا

نافعا في ظني ، أملا أن يكون كذلك في حكم الناس ، الناس
العقلاء طبعا ! الذين يفهمونها وهي طائفة •

نظرتي المستجدية منه ولو قرشاً لا تظفر منه حتى
ولا بمليم ، أتنازل عن آمالي الكبار وأستجدي منه ما هو دونها
بكثير ، ما دام أن فرحته برؤية طلعتي البهية قد جبت عنده كل
مقدرة على السمع ، ولا أقول على الفهم ، فلا أقل من أن يقول
لي : وكان وجهك مشرقاً كالبدر ، أو حتى : لحظت أنك كنت
متجهماً مقطب الأسارير فلماذا ؟ أو حتى - والله العظيم - كنت
كالأعمش في غمرة الضوء ! لازلت أحفظ له انسانيته فلا أتوقع
منه أن يهبط إلى الدرك الأسفل من حماقة فيكلمني عن أناقة
بذلتى وشياكة رباط عنقي ، أو اختلاف العصا التي أحملها
معى كل مرة من جلسة إلى جلسة ، ثم يخامرني الشك في هذه
الانسانية حين أتهرب من فهم نظرتي وأنا أهرب منه ، انها تكاد
تنطق بلمحات من جوع مرير أو مرارة جائعة ، هذا هو سر
لمعانها ، كأنه يغبطني على فوز نلته ولم ينله هو بعده .. هذا الفوز
العظيم هو الظهور في التليفزيون .. مجرد الظهور ؟

هل ظلمته ؟ ربما انتقل إليه الهوس بالعدوى البصرية ..
فهو معذور ، فلعل أغلب الذين يظهرون في التليفزيون تترنج
أعطافهم بفرحة الظهور في التليفزيون ، مجرد الظهور ، بذلة
التليفزيون هي بذلة الأعياد ، السوداء المخططة أو الكحلى
المنغمشة ، ورباط الرقبة تم شراؤه في اليوم ذاته ، والحذاء

لميع ، والجلسة بحساب واللفتة بتقدير ، والتخشب على أتمه ،
حتى الأطفال في برنامج « ماما سميحة » يتزاحمون بالمناب
ليتحقق لهم الفوز العظيم .. الظهور في التلفزيون مجرد
الظهور *

بل قد قبل بعض من أكبرهم وأجلهم أن تستذلهم خيلاؤهم
قبل الجلوس أمام العدسة في برنامج أدبي في العلالى يعنى عن
سارتر أو بيكيت مثلا ، فالى اليوم لا أزال أذكر شهقتى حينما
قابلت صديقى هذا ذات مساء في دهاليز التلفزيون ، فقد خيل
الى أنه أصيب فجأة بارتفاع مخيف في ضغط الدم ، أو أن
مرضا جلديا عجيبا قد طفح على وجهه فأصبح لونه لا هو أصفر
ولا هو أحمر ولا هو أبيض بل بين بين ، لعغل أصدق تشخيص
أنه أصيب لتوه بفقر شديد في الدم ، فحول عينيه هالات سود ،
وأنا لا أعرفه يكحل جفنيه .. هجمت عليه أقول له : مالك
سلامتك ، دعنى اصحبك الى البيت .. فاذا به يتسم لى ويقول:
- قيل لى أن المكياج ضرورى لأجل أن تكون صورتى
طبيعية ..

فقلت له وأنا أكنم خيبة أملى : طبعا ، طبعا !!

(« التعاون » ، العدد ١٣٩ ، ١٧/١٠/١٩٦٥ ، ص ٨)

المهنة ..

حكم كثيرة موروثه ، عملة متداولة ، ولكنها عند تجربتها
تبين أنها من قبيل (الماركة) التي يصطنعها صاحب القهوة
لحاسبة الجارسون دفعة واحدة - لا بالقطاعي - بعد التشطيب ،
(ماركة) مستديرة تنوب مناب قيمة كوب من الشاي (وماركه) ،
مضلعة تنوب مناب قيمة شيشة حمى لا يريد صاحب القهوة أن
يخوت دماغه ويجد الفكة كلما مر الجارسون أمامه حاملا طلب
الزبون ، من السياسة والراحة تأجيل ساعة الحساب . ساعة يتبين
المكسب من الخسارة ، ما أحلى التعامل بالوهم ! .. ولكنك
إذا ذهبت بهذه (الماركة) الى السوق ونزلت الى معتركة الفعلى
الرهيب لما وجدت بائعا يقبلها منك ، أو حتى صرافا يفكها
لك ، ليفك زنتك .. حكم كثيرة هذه حالها ، صالحة طالما
يقت خارج السوق ، باطلة ، فالصو .. داخلة - رغم بريقها -
ربما بسبب بريقها .. دلالة على أن تداولها كان بغير دعك
وامتحان ، كل ما أريد لها من صنعها هو فض مجالس ، أو اغلاق
فم ثرثار ، أو نقض اليدين من عناء الحساب ، والتهرب من
المواجهة .

وقد تعلمت الاحتراس من هذه الحكيم التي تشبه (ماركة)
صاحب القهوة •• كالحكمة القائلة : « من فكر في بلوى غيره
هانت عليه بلواه » ، فهذه الحكمة تقفز الى ذهني ويردها
لساني على الفور كلما أخذ انسان يشكو لي هما له ، بدلا من
أن يهز رأسه اقتناعا بها ويطيب خاطره ويشكرني عليها أحس
انه امتلا بمرارة يأس تضاف الى همه ، جلله بواخ هيهات
أن يغفر لي أنتى سببه ، نطقت نظرتة بالغيظ ، وربما بالكراهية ،
هذا - أولا - وقع النصيحة على النفوس •

وكل الحكم مصوغة في قالب نصائح ، يد الناصح هي
العليا ، كأنها تملك الكون ، أين كل عقل وحنكة من عقلها
وحنكتها •• ويد المستنصح هي الدنيا •• فارغة ، مفلسة ،
سقيمة ، ذليلة بكونها غناجة ، لأنها محتاجة •• فكيف لا تكره
اليد الدنيا اليد العليا التي تتعاطم عليها •• شاطرة لأنها على
البر ، ثم - وثانيا - يقول لي الشاكي في سره : جئتك بسرطان
فوصفت لي قرص اسبرين •• وما شأنى أنا بهوم الآخرين ،
هي ظن والثابت هو همى ، همى أنا ، طمعت أن أجد عندك
الفرج لا نكدا فوق نكد •• بتحليلي أيضا هموم الآخرين ••
المخرج عنده من مأزقه أن يلجأ الى التحدى • تقول لي نظرتة
بجراحة مفتعلة انه مستعد لأن يبادل همه بأى هم للآخرين ، اذ هم
خيابة ، أما هو سيعرف كيف يختله ويكسر شوكتة •

ما نلت من استخدام حكمة « من فكر في بلوى غيره »
الا أنني خسرت صاحبي بدلا من أن أكسبه ، فأعتزم الاحتراس
من قادم مع غيره ، ولكنني أقع دائما في عين المطب •

جميع المقدمات مجعولة للفضفضة بمخزون من فلسفة
فارغة ، شبيهها صوت يصك الآذان ويزكم الأنوف ، وفي أغلب
الأمر لا علاقة لها بصلب الموضوع ، لهذا أقرأ كتباً كثيرة بعد
عدة صفحات من الفصل الأول •• لأن المقدمة لا بد ساحت
عليه أيضا ، فاغفر لي ما تقدم من ذنبي وسخافتي وتعال الآن
بكلام خفيف لجعل الحكمة اياها مثار ابتسام لا مثار فلسفة ،
فهى تشب لذهنى فابتسم كلما كان الطلب منى أن املا استمارة
لاستخراج بطاقة أو لتسجيل نزولى فى فندق ، أجب على
سؤالها عن اسمى وتاريخ ميلادى بسهولة ، لا عن يقين بل عن
اصطلاح بينى وبين الناس لا ينقضى تشككى فيه وعجبنى منه •
فاذا جئت لسؤالها عن « المهنة » تردد القلم فى يدي ونظرت
فى وجه من يناولنى الاستمارة فى بلاهة وخجل •• يا لها من
بلوى ، حينئذ أعمد لتهوينها على نفسى الى التفكير فى بلوى
الآخرين ، بلوى الصديق صلاح طاهر مثلا لو كان مكانى ••
ماذا يكتب ؟ • هل يقول « فنان » فيحسبه مناوول الاستمارة
ممثلا أو مخرجا للمسرح أو السينما ، وربما يحسبه أيضا من
طقم الراقصين فى فرقة للفنون الشعبية ، وفيهم من لا يقل كرشه
عن كرش صلاح الآن •

ليس في لغتنا اليوم كلمة عائمة مبهمة مختلطة سايحة مثل
كلمة « فنان » .. اذن هي لا تصلح .. هل يقول « رسام » ؟ ..
هذه الكلمة خرجت من التداول ، اختص بها رسام المساحة الذي
يقيس حدود الأطباء ، واذا توكل على الله وقال : مصور .. فهل
يضمن ألا يجيئه سؤال : مصور فوتوغرافي حضرتك ؟ .. هل
يمكن أن يجيبه : لا بالزيت .. أو بالفحم ؟ ..

حالي مهمسا شق أخف من حاله ، أفكر في بلواه فتهون
بلوتي ، الحكمة اياها نعت هنا .. فأنا أتردد رغم الأبتسامة
ماذا أقول .. هل أقول « كاتب » فلا أضمن أن يجيئني سؤال :
كاتب حسابات ؟ .. كاتب طبونة ؟ كاتب عمومي أمام محكمة ؟ ..
أم أقول : أديب .. الأدب صفة .. فهل يصلح أن يكون صنعة
أو مهنة .. هل الأدب ثوب ألبسه عند الشغل ثم أخلعه عند
الفراغ .. وماذا يبقى على جسدي ؟ .. قلة أدب .. أم أقول :
« مؤلف » فأعرض لخيبة الأمل اذا تفتت لمناول الاستمارة بعد
سؤاله أنني مؤلف أغاني ، ورأيت أن احترامه لي قد قل ..
فأنت ترى أن لا مهنة لي تصلح للكتابة في استمارة .. وأخيرا
اهتدي الى الحل وأكتب « بالمعاش » لا أقصد أنني كنت موظفا
ثم بلغت الستين ، بل اني لا أزال أعيش .. وهي مهنة حلوة
ولا ريب ا ..

الفهرس

الصفحة	
٥	(١) من عالم الطفولة :
٧	- شقشقة الفجر
١٣	- جانب الرهبة
١٧	- طائر الرهبة
٢١	- رسائل من عالم مجهول
٢٧	- يمين وشمال
٣١	- هذا العالم الخفى المجهول
٣٧	- اللودة والانسان
٤١	- صورة مخيفة للناس والدنيا
	- انما الدروس من حوش المدرسة .. لا من
٤٧	الفصل
٥٢	- من كناسة الذكريات
٦٣	- وجهها لوجه
٧٣	- الموت
٧٧	(٢) من ذكريات الحجاز
٧٩	- يا جحا .. ودنك منين ؟
٨٥	- حفلة موسيقية « كتيمة »

١٩٣

(١٢ م = كناسة الذكاء)

٩٣	من جراير الموسيقى
٩٩	هذا الشبل من ذاك الاسد
١٠٧	مناكفات . . وصفائر
١١٣	بين الروبسة وريال تيريزة
١٢١	دروس وذكريات
١٢٦	يوم الحشر على الارض
١٢٤	ورق . ورق . ورق
١٤١	(٣) في دروب الحياة :
١٤٣	مذكرات فنان غشيم في الكار
١٥١	الزهرة والأصيص
١٥٧	اعترافات ومضايقات
١٦٥	من ٣٧٥هـ الى ٥٤٠هـ . . !
١٧٥	حماقة
١٨١	لقاء الحياة
١٨٥	مجرد ظهور
١٨٩	المهنة

مؤلفات يحيى حقي

- ١ - فنديل أم هاشم - مع سيرة ذاتية للمؤلف .
- ٢ - فجر القصة المصرية - مع ٦ دراسات من نفس المرحلة .
- ٣ - فكرة فابتسامة .
- ٤ - صح النوم .
- ٥ - خطوات في النقد .
- ٦ - دمة فابتسامة - مع الدعاية في المجتمع المصري .
- ٧ - دماء وطن - مع قصص أخرى من الصعيد .
- ٨ - تعال معي إلى الكونسير - مع الكاريسكاتير في موسيقى السيد درويش .
- ٩ - ناس في الظل - مع شخصيات أخرى .
- ١٠ - أم العواجز .
- ١١ - حقيبة في يد مسافر - ورحلات أخرى .
- ١٢ - عطر الأحباب - مع ٢٠ دراسة أخرى .
- ١٣ - عنتر وجولييت - مع ١٠ لوحات أخرى .
- ١٤ - يا ليل يا عين - سهرابة مع الفنون الشعبية - مع مقالات السيرك والمولد

- ١٥ - انشودة للبساطة - مقالات في فن القصة .
- ١٦ - خليها على الله .
- ١٧ - صفحات من تاريخ مصر .
- ١٨ - من فيض الكريم .
- ١٩ - الفراش الشاعر وقصص اخرى .
- ٢٠ - مدرسة المسرح .
- ٢١ - مفهوم ثقافية .
- ٢٢ - تراب الميرى .
- ٢٣ - عشق الكلمة .
- ٢٤ - من باب العشم .
- ٢٥ - فى السينما .
- ٢٦ - هذا الشعر .
- ٢٧ - فى محراب الفن (موسيقى - تشكيل - عمارة) .
- ٢٨ - كنيسة الدكان .

رقم الايداع ٧٧٢٢ / ١٩٩٠

التزقيم الدولى 5 - 2555 - 01 - 977 - I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

عن طريق الأذن لا العين بدأ في طفولتي احسني بتلك
الحقبة الجميلة الرهيبة معا - مولد الفجر وتردد أوائل
انفاسه ، قنلا قيام للأسرة كلها عن الفراش ، ولا فتح
الشيش لأنه خرج للخلوة عندنا وعند الجيران ،
ولا خسروج إلى الطريق إلا والشمس قد علت قصبة
ونصف على الأقل ، (هذا القياس عن قبيل القحس على
التي كنت لا أسكن الريف)

Biblioteca Alexandria



0422307



طابع اليد اليمنى

٢٢٥ قر سا

To: www.al-mostafa.com